

سُورَةُ الْعَادِيَّاتِ

حِينَ يَعْدُو الْإِنْسَانُ إِلَى الدُّنْيَا وَيَتَّبَعُهُ خَفَايَا الصُّدُورِ



تَأْلِيفُ: رَدَّادُ السَّلَامِيِّ

سُورَةُ الْعَادِيَّاتِ

حِينَ يَعْدُو الْإِنْسَانُ إِلَى الدُّنْيَا وَتَبْعَثُ خَفَايَا الصُّدُورِ

تأليف : رَدَّادُ السَّلَامِيِّ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة منهجية

من ضبح الخيل إلى صمت القبور

ليست سورة العاديات سورةً تصف مشهداً من مشاهد الخيل فحسب، ولا لوحةً حربيةً عابرةً التقطها البيان القرآني من قلب الغبار، وإنما هي سورةٌ تهجم على غفلة الإنسان كما تهجم العاديات في الصباح؛ تبدأ بالحركة التي تكاد تخرج من حدود الصورة، وتنتهي بالعلم الإلهي الذي لا تخرج من إحاطته خافية، وبين البداية والنهاية تقيم موازنةً مذهشةً بين مخلوقٍ ير كض حتى يتقطع نفسه وفاءً لمن يقوده، وإنسانٍ يعيش في نعم ربه ثم يقابل الإحسان بالجحود، وبين شررٍ تقدحه الحوافر من صلابة الحجارة،

وشرّ يقده حبُّ الدنيا من قسوة القلوب، وبين غبارِ نثيره الخليل
فوق وجه الأرض، وأسرارٍ يبعثها البعث من أعماق القبور،
وبين اقتحام الصفوف في أول السورة واقتحام العلم الإلهي لسرائر
النفوس في خاتمها.

إنها سورة الحركة والمصير، والاندفاع والانكشاف، والظاهر
الصاحب والباطن المكتوم؛ سورةٌ تضع الإنسان أمام مفارقةٍ
موجعة: فالخيل التي لا عقل لها تعرف طريقها، وتستنفذ قوتها،
وتقتحم الخطر، وتطيع قائدها، أمّا الإنسان الذي وهبه الله العقل
والقلب والبيان، فقد يضلّ عن ربّه، ويقعد عن غاية وجوده،
ويستجيب لنداء المال أكثر مما يستجيب لنداء الحق، حتى يصبح
شديد العدو إلى ما يفنى، بطيء المسير إلى ما يبقى.

وتقوم البنية التصويرية للسورة على انتقالٍ خاطف من مشهدٍ
خارجيٍّ منزّلٍ إلى حقيقةٍ داخليةٍ فاضحة؛ من أصوات الأنفاس
المتلاحقة، وشرر الخوافر، وهجوم الصباح، وتصاعد النقع،
والتوسّط في قلب الجمع، إلى كلمةٍ واحدةٍ تكشف مأساة

الإنسان: الكنود. وكأن ذلك المشهد الهائل كله قد عُرض ليُهدّ
لهذه الكلمة، وليجعلها تقع في النفس بقوة الحوافر نفسها. فما قيمة
أن يتحرك الجسد بكل طاقته إذا كنا عن شكر الله؟ وما قيمة أن
يخوض الإنسان معارك الأرض إذا كان مهزوماً أمام شهوته؟ وما
جدوى أن يثير الغبار من حوله، ويملأ الدنيا حركةً وصخباً، إذا
كان لا يعرف إلى أين يمضي، ولا ماذا ينتظره عند نهاية الطريق؟
وسنمضي في هذه الرحلة من ظاهر الألفاظ إلى أعماق
الدلالات، فنبدأ باللغة والسياق والنظم، ثم نعبر منهما إلى التأمل
الفكري والتربوي والوجودي، دون تحميل الآيات ما لا تحمل،
ودون فصل إشراقاتها عن أصل معناها. سنقف عند كل مشهدٍ،
ونصغي إلى كل لفظةٍ، ونتأمل ترتيب الحركات والأصوات، ثم
نرى كيف يحول القرآن مشهد الخيل إلى مرآة يرى الإنسان فيها
قلبه، وكيف ينقلنا من حوافر تضرب الحجارة إلى شهوة تضرب
جدار الضمير، ومن قبور تُبعثر إلى صدور تُحصّل، ومن حياةٍ
يختلط فيها الصدق بالادعاء إلى يومٍ يفصل فيه كل شيءٍ عن
كل شيءٍ، ويظهر الإنسان كما هو، لا كما كان يريد أن يبدو.

إن سورة العاديات، على قصرها، ترسم قصة الإنسان كاملة:
طاقة مندفعة، ونعمة محيطة، وقلب كنود، وشهوة شديدة، وقبر
ينتظر، وسريرة ستظهر، ورب خبير. وما بين أول ضبحة في
السورة وآخر خبرة إلهية فيها، ينكشف سؤال العمر كله: إلى أي
شيء نعدو؟ وبأي قلب نصل؟ وماذا يبقى من الإنسان حين
يسقط عنه غبار الحياة، وتُفتح الأرض، وتُبعر القبور،
وتُستخرج من الصدور حقيقتها الأخيرة؟

الفصل الأول

وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا

حين يمتلئ الطريق بأنفاس الوفاء

قال الله تعالى:

﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا ۖ فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا ۖ فَالْمُغِيرَاتِ

ضُبْحًا ۖ فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا ۖ فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا﴾

يفتح القرآن السورة بقسم لا يأتي ساكنًا، بل يندفع من أول حرفٍ اندفاعًا، فلا تمهيد طويل، ولا وصف بارد، ولا صورة بعيدة، وإنما حركةٌ تبدأ فجأةً، كأن السامع يقف في فضاءٍ ساكن ثم تمر أمامه الخيل مسرعةً، فتملأ المكان بأصوات أنفاسها، وتقذح الأرض بحوافرها، وتوقظ الصباح بهجومها، ونثير النقع من خلفها، ثم لا تقف عند أطراف الصفوف، بل تشق طريقها حتى تبلغ قلب الجمع.

والمشهور عند جمهور المفسرين أن المراد بالعاديّات الخليل التي تعدو في سبيل غايتها، وأن الضَّبح هو صوت أنفاسها المترددة في صدورها عند اشتداد العدو. وهذا التعبير لا يصف سرعة الأرجل وحدها، بل يكشف مقدار الجهد المبذول؛ فالخليل لا تجري جرياً هادئاً، وإنما استنفدت قواها حتى صار لأنفسها صوتٌ مسموع. وهنا يبدأ المعنى الأخلاقي في التكوّن من داخل الصورة: فالوفاء ليس دعوى ساكنة، بل طاقةٌ تُبذل حتى آخر النَّفس، والطاعة ليست شعوراً غامضاً، بل حركةٌ يشارك فيها الجسد كله، والغاية الصادقة هي التي تجعل صاحبها يمضي إليها حتى يسمع الطريق اضطراب أنفاسه.

لم يقل سبحانه: والخليل الجارية، بل قال: ﴿وَالْعَادِيَّاتِ﴾؛ لأن لفظ العدو يوحي بتجاوز السير المعتاد، وبقوة الاندفاع، وبأن هناك غايةً تستدعي الاستنفار. ثم جاءت كلمة ﴿ضَبْحًا﴾ كأنها التسجيل الصوتي للمشهد؛ فلا يكتفي القرآن بأن يجعلك ترى الخليل، بل يجعلك تسمعها، ويقربك من صدورها، ويطلعك على النَّفس المتلاحق فيها. إن الصورة القرآنية هنا لا تُرى بالعين

وحدها، وإنما تُدرك بالأذن والخيال والوجدان، حتى يصبح القارئ جزءاً من الحركة، ويشعر أن السورة نفسها تعدو.

وفي هذا القسم تكريمٌ للحركة حين تنتظم في طاعة، وللقوة حين تتجه إلى غاية، وللطاقة حين لا تُهدر في العبث. فليست كل حركة حياة، ولا كل سرعة وصولاً، ولا كل اندفاع بطولة؛ وإنما تكتسب الحركة قيمتها من الوجهة التي تقصدها، والغاية التي تستنفد نفسها من أجلها. كم من إنسانٍ يركض طوال عمره، لكنه لا يقترب من حقيقةٍ ولا فضيلة! وكم من حياةٍ مزدهمة بالمواعيد والمشروعات والخصومات والرحلات، وهي في ميزان المعنى واقفةٌ في مكانها! إن السؤال ليس: كم قطعتَ من الطريق؟ بل: إلى أين كان الطريق يقودك؟ وليس: كم تعبْتَ؟ بل: في سبيل ماذا بذلت تعبك؟

والقرآن حين يقسم بالعاديات لا يعلم الإنسان أن يكون كثير الحركة فحسب، بل أن يكون واضح الغاية؛ لأن الخليل في المشهد لا تتردد بين الطرق، ولا تتوقف كل لحظةٍ لتعيد حساباتها، ولا

تنشغل بما يتساقط حولها، وإنما تمضي بكل ما فيها نحو المقصد الذي وجهها إليه قائدها. أمّا الإنسان فقد يعرف طريق الله، ثم تشغله عنه إشارات الطريق؛ ويرى الغاية، ثم يستنزفه النظر إلى الحواشي؛ ويوقن بقصر العمر، ثم ينفق أيامه كما لو أنه خالد.

وتكشف الآية عن معنى دقيق في الوفاء: هذه الخيل لا تملك من إدراك الغايات ما يملكه الإنسان، ومع ذلك تحمل راكبها، وتجتاز به الخوف، وتعرض للخطر، وتستنفد أنفاسها في أداء ما سُخِّرَتْ له. وسوف تأتي بعد هذا القسم حقيقة الإنسان الكنود، فتظهر المفارقة في أشد صورها: مخلوق أعجم يفي لمن يطعمه ويرعاه، وإنسان عاقل يجحد رباً خلقه ورزقه وستره وهداه. وكأن الخيل لا تقف في السورة بوصفها مشهداً من مشاهد القوة وحده، بل شاهداً صامتاً على تقصير الإنسان؛ فهي تؤدي مهمتها بما لديها من قدرة، بينما يُعرض الإنسان عن مهمته مع ما أُعطي من عقلٍ ووحى وفطرة.

إن الضَّجَّح صوت الجهد حين يبلغ غايته، ولهذا يمكن للقلب أن يسمع في هذه الكلمة سؤالاً يخصّه: هل بذل في طريق الله من الصدق ما بذلته هذه العاديات من النَّفس؟ هل عرف من حرارة الشوق ما عرفته أجسادها من حرارة العدو؟ هل قاوم أهواءه حتى سُمع لأنفاس مجاهدته صوت؟ أم أنه منح الدنيا نشاطه كله، ثم جاء إلى الآخرة بفتور ما تبقى؟

إن الإنسان لا يُلَام لأنه تعب، وإنما قد يُلَام لأنه تعب في الطريق الخطأ؛ ولا يُحَاسَب لمجرد أنه أحبّ، وإنما يُحَاسَب حين جعل حبه في غير موضعه؛ ولا تكون مأساته في أنه بذل عمره، فالعمر لا بد أن يُبذل، ولكن في أنه أنفق أثمن ما يملك على ما لا يستحق. وكل إنسان في هذه الحياة من العادين؛ غير أن بعضهم يعدو إلى الله، وبعضهم يعدو عن الله، وبعضهم يركض خلف رزقه ليعفّ نفسه، وبعضهم يركض خلف المال ليستعبد نفسه، وبعضهم يسابق عمره بالعمل الصالح، وبعضهم يسابق أجله في طريق الغفلة.

ولهذا تبدأ سورة العاديات بالحركة قبل أن تكشف الوجهة،
وبالنفس قبل أن تكشف القلب، وبالخيل قبل أن تتحدث عن
الإنسان؛ لأن المعيار ليس أن تكون قادراً على العدو، بل أن
تعرف إلى أين تعدو. وقد يُسمع ضجيج خطواتك في الأرض
كلها، بينما لا يكون لك عند الله وزن؛ وقد تمضي في هدوء لا
يلتفت إليك أحد، لكن كل خطوة منك تقع في موضعها
الصحيح من طريق الخلود.

وفي قوله: ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا﴾ نداءً إلى الإنسان أن يوقظ
قواه النائمة، وأن يخرج من الثقل الذي يصنعه التعلق بالأرض،
وأن يدرك أن الإيمان ليس فكرةً تستريح في العقل، بل قوة تدفع
صاحبها إلى أن يعمل ويقاوم ويصبر ويمتاز المسافات. فالإيمان
الذي لا يحرك صاحبه نحو خيرٍ، ولا يرده عن شرٍّ، ولا يجعله
أكثر وفاءً لربه، يظل دعوى لم تدخل بعد في نسيج الإرادة.

العاديات تركض حتى يتقطعن أنفسها، والإنسان يقطع عمره
كله في عدوٍ لا ينتهي؛ لكن الفارق الذي يقرر قيمة الرحلة هو

أن تعرف النفس مَنْ يقودها، ولأَيِّ غايةٍ تنطلق، وبأَيِّ شيءٍ
ستلقى ربها حين يسكت ضجيج الطريق، وتنقطع الأنفاس، ولا
يبقى من العدو الطويل إلا الجهة التي انتهى إليها.

وهكذا لا تبدأ السورة بوصف الخيل وحدها، بل تبدأ بوضع
القلب الإنساني على حافة السؤال: إذا كانت هذه المخلوقات قد
أعطت الطريق كل نفسها، فماذا أُعطيت أنت لطريقك إلى الله؟

الفصل الثاني

فَالْمُورِيَّاتِ قَدْ حَا

حين تستخرج صلابة الطريق نار الغزيمة

بعد أن أقسم الله تعالى بالخيال العادية التي اشتد جريها حتى سُمع
ضَبْح أنفاسها، انتقلت الصورة إلى أثرٍ آخر من آثار ذلك العدو
المتصل، فقال سبحانه:

﴿فَالْمُورِيَّاتِ قَدْ حَا﴾

الفاء هنا ليست حرف عطفٍ عابراً، وإنما هي نبض الحركة
المتتابعة؛ فما إن انطلقت العاديات حتى اصطدمت حوافرها
بصلابة الحجارة، وما إن وقع الاصطدام حتى انقذح الشرر. إن
المشهد لا يقف، والصورة لا تمنح العين وقتاً طويلاً للتأمل
الساكن؛ لأن السورة تريد أن تنقل إلينا سرعة الحدث، وشدة
الاندفاع، وتعاقب الآثار: عدو، فضَبْح، فاصطدام، فقدح،
فشرر يلعب في عتمة الطريق.

والموريات هي التي تُخرج النار وتُظهرها، والقُدح هو الضرب الذي يستخرج الشرارة الكامنة من التقاء الصلب بالصلب. فالنار لم تكن ظاهرةً على سطح الحجارة، ولكن الضرب كشف ما كان مستتراً فيها؛ وكأن الطريق، على قسوته، لا يكفي بأن يختبر قوة العاديات، بل يجعل من اصطدامها به نوراً يضيء جوانب المشهد. وهنا نتفتح دلالةً إنسانيةً بديعة: ليست الصعوبات التي تواجه الإنسان فراغاً خالصاً من المعنى، وليست كل صلابةٍ في الطريق علامةً على أن الطريق خطأ؛ فقد تكون الحجارة التي تؤلم القدم هي نفسها التي تقدح منها نار البصيرة، وقد يكون الاصطدام بالشدائد هو الذي يكشف في النفس طاقاتٍ لم تكن تعلم أنها تحملها. فالحديد لا يظهر صوته إلا إذا ضُرب، والعود لا يفوح عطره إلا إذا احترق، وبعض خصال الإنسان لا تُرى في الرخاء، وإنما تظهر حين يضيق الطريق ويشد الامتحان.

إن الطريق السهل قد يكشف رغبة الإنسان، أما الطريق الشاق فيكشف صدقه؛ لأن كثيراً من الناس يستطيعون إعلان المبادئ

ما دامت المبادئ لا تطلب منهم ثمناً، ويستطيعون الحديث عن
الوفاء ما دام الوفاء لا يضعهم أمام خسارة، ويستطيعون التغني
بالصبر ما دام البلاء بعيداً عن أبوابهم. فإذا احتكَّ إيمانهم
بصلابة الواقع ظهر ما فيهم: فمنهم من ينطفئ عند أول صخرة،
ومنهم من يقدح من الصخرة نفسها شرارةً يهتدي بها إلى مواصلة
الطريق.

ولا يعني ذلك أن الألم مطلوبٌ لذاته، أو أن المشقة فضيلةٌ
منفصلةٌ عن غايتها، وإنما المعنى أن النفس المؤمنة لا تسمح للمحنة
بأن تكون قوةً عقيمة؛ فهي تستخرج منها معرفةً، وتربيةً،
ونضجاً، ومراجعةً، وقرباً من الله. إن المؤمن لا يعبد الألم،
ولكنه لا يدعه يمرّ عليه بلا ثمرة؛ ولا يطلب العثرة، لكنه إذا عثر
تعلم كيف ينهض؛ ولا يفتعل المصائب، لكنه إذا أصابته مصيبةٌ
لم يجعلها قبراً لروحه، بل حوّلها إلى نافذةٍ يرى منها حقيقة الدنيا،
وضعف الإنسان، وسعة رحمة الله.

وما أكثر الذين عبروا من الشدة وفي أرواحهم من النور ما لم يكن فيها قبل الشدة؛ عرفوا أنفسهم حين تهاوت من حولهم أسباب القوة، وعرفوا ربهم حين انقطعت عنهم حبال الخلق، وعرفوا حقيقة الدنيا حين انكسر في أيديهم ما ظنوه ثابتاً. لقد قدحت المحنة في داخلهم ناراً، ولكنها لم تكن نار الاحتراق وحدها؛ كانت أيضاً نار الاستنارة. فبعض الآلام يهدم الإنسان، وبعضها يهدم الوهم الذي كان يحجب الإنسان عن نفسه.

وفي لفظ ﴿المُورِيَاتِ﴾ إيحاءٌ بالفعل والإظهار؛ فالشرارة لا تظهر من التني، ولا يولد الضوء من مراقبة الحجارة عن بُعد، وإنما يقع القدح حين تدخل القوة في مواجهة الصلابة. وكذلك المعاني الكبرى لا تتحول إلى حقائق في حياة الإنسان إلا حين تحتك بالواقع: لا يعرف حقيقة توكله حتى تضطرب الأسباب، ولا يعرف حقيقة إخلاصه حتى تغيب أعين الناس، ولا يعرف حقيقة عدله حتى تكون له مصلحةٌ في الظلم، ولا يعرف حقيقة

عُفوه حتى يقدر على الانتقام، ولا يعرف حقيقة زهده حتى تُفتح له أبواب الدنيا.

إن الأخلاق قبل الامتحان احتمالاتٌ جميلة، فإذا وقع الامتحان صارت حقائق أو انكشفت أوهاماً. وما يقوله المرء عن نفسه في زمن السعة ليس دائماً هو نفسه ما يقوله فعله في زمن الضيق؛ لأن الألسنة تستطيع أن تصنع صورةً كاملةً للإنسان، لكن المواقف وحدها هي التي تكشف مادته الداخلية. ولعل من أعمق ما تعلّمه هذه الآية أن احتكاك الإنسان بالحياة ليس مجرد عائقٍ أمام تكوينه، بل هو جزءٌ من التكوين نفسه.

كانت الحوافر تضرب الحجارة، ولكن القرآن لم يقل: فالمصطدمات بالحجارة؛ بل تجاوز الاصطدام إلى الثمرة، فقال: ﴿فَالْمُورِيَّاتِ قَدْ حَا﴾. كأن العبرة ليست بمجرد أن تصطدم، فكل الناس يصطدمون، وإنما العبرة بما يخرج منك ساعة الاصطدام. قد تضربك الشدة فتخرج منك شرر السخط، وقد تضربك فتستخرج نور الصبر؛ وقد تستفزك الإساءة فتخرج

أخفى ما فيك من كبرٍ وانتقام، وقد تكشف فيك سعة الصدر
ونبل الخلق. إن الأحداث لا تضع دائماً ما في النفس، بقدر ما
تكشف ما كان مستكناً فيها.

ومن هنا يتصل مشهد القدر بخاتمة السورة اتصالاً عميقاً، ففي
أولها تستخرج الحوافر شرراً كان كامناً في صلابة الحجارة، وفي
آخرها تُحصّل الصدور فتُستخرج منها الحقائق التي كانت كامنةً
في أعماقها. هناك قدحٌ يكشف نار الحجر، وهنا تحصيلٌ يكشف
سريرة الإنسان؛ وكأن السورة منذ بدايتها تعلّنا أن ما خفي لا
يبقى خفياً إلى الأبد، وأن لكل باطن لحظة ظهور، ولكل مستورٍ
ساعة انكشاف.

ولذلك ينبغي للإنسان ألا ينشغل كثيراً بالصورة التي استطاع
أن يصنعها في أعين الناس، بل بالحقيقة التي تنقدح منه حين
يصطدم؛ فالناس قد يرونه هادئاً لأنه لم يُستفز، وكرماً لأنه لم
يُختبر، وشجاعاً لأنه لم يواجه الخوف، وصادقاً لأنه لم يُعرض عليه
ثمن الكذب. غير أن الله يعلم حقيقة ما في الصدور قبل أن

تكشفه المواقف، وسيأتي يومٌ يُحصَل فيه كل ما خفي، فلا يحتاج الإنسان عندئذٍ إلى حادثةٍ تكشفه، لأن العلم الإلهي قد أحاط بظاهره وبباطنه.

إن العاديات لا تحمل في حوافرها مشاعل جاهزة، لكنها تصنع الضوء وهي تمضي؛ فلا تنتظر أن يضئ لها الطريق كله قبل أن تبدأ. وهذه صورةٌ أخاذةٌ لكل صاحب رسالةٍ يظن أنه لا يستطيع السير حتى تكتمل الظروف، وتتهيا الإمكانيات، وتزول المخاوف، ويظهر الطريق من أوله إلى آخره. بعض الطرق لا يضيء إلا تحت أقدام السائرين، وبعض اليقين لا يولد قبل الخطوة بل معها، وبعض الفتح لا يأتي للقاعدين الذين ينتظرون اكتمال النور، وإنما يأتي للذين يمشون بما لديهم من هداية، فيقدح ثباتهم من صخر العقبات ما يعينهم على ما بقي من المسافة. وليس الإيمان أن ترى الطريق خالياً من الحجارة، وإنما أن يكون في قلبك من اليقين ما يحول احتكاكك بالحجارة إلى ضوء؛ وليس الصبر أن تنجو من الألم، وإنما أن تنجو روحك من أن تصبح صورةً

أخرى من صور الألم؛ وليس النصر أن تُعفى من المعركة، وإنما أن تخرج منها وقد ازدادت بصيرتك، ولم تفقد عدلك، ولم تخسر نفسك.

كم من إنسانٍ سأل الله طريقًا مضيئًا، فجعل الله في خطاه القدرة على إضاءة الطريق؛ وسأل حياةً بلا صدام، فأراه الله أن قوته لن تظهر إلا في الصدام؛ وسأل أن تُرفع الصخور من أمامه، فإذا الحكمة أن تبقى بعض الصخور ليعرف ما في روحه من احتمال، وما في قلبه من توكل، وما في إرادته من حياة.

إن ﴿فَالْمُورِيَّاتِ قَدْحًا﴾ ليست وصفًا للشر وحده، بل صورةٌ للقوة حين لا تسمح للعائق أن يبقى عائقًا محضًا؛ تضرب الصخرة فتتألم، لكنها تستخرج من صلابتها نورًا. وهكذا يكون الإنسان الحيّ: لا ينكر قسوة الطريق، ولا يتوهم أن الحجارة زهور، لكنه يحمل من الإيمان ما يجعله ينتزع من قلب الشدة معنى، ومن قلب الفقد معرفة، ومن قلب الانكسار عبوديةً، ومن قلب الليل شرارةً تدلّه على الصباح.

الفصل الثالث

فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا

حين يقتحم الفعل سكونَ العالم

قال الله تعالى:

﴿فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا﴾

تمضي الفاءات في السورة كأنها وقع الحوافر نفسها:
﴿فَالْمُورِيَاتِ﴾ ثم ﴿فَالْمُغِيرَاتِ﴾؛ فلا تراخ بين العدو والقدح،
ولا بين القدح والوصول، ولا بين الاستعداد والفعل. لقد
قطعت الخيل مسافة الليل، واحتملت وعشاء الطريق، وقدحت
الشرر من الحجارة، ثم أدركها الصبح وهي لا تزال في اندفاعها،
فبلغت غايتها ووقع الإغارة في الوقت الذي عين لها.

والإغارة هجومٌ سريعٌ مباغت، والصبح هو الزمن الذي ينشق
فيه الضوء من ظلمة الليل، وتبدأ الأشياء في استعادة أشكالها
وحودوها. واختيار الصبح يملاً المشهد بدالتين متقابلتين: هدوء
الكون واستنفار الخيل، سكون اللحظة وشدة الفعل، ولادة

الضوء وتصاعد غبار المعركة. وبين هذه المتقابلات تشكل صورةً لا تُنسى: صباحٌ لا تستقبله الدنيا بأصوات الطيور وحدها، بل بوقع الحوافر القادمة من وراء الليل.

لقد بدأت الرحلة في جوٍّ يلعب فيه الشر، وهو ما يلائم ظلمةً يظهر فيها الضوء، ثم انتهت إلى الصبح؛ وكأن الشرارات الصغيرة التي كانت تقدها الحوافر قد سبقت النور الكبير الذي يقده الفجر من أفق السماء. كانت الخيل تصنع في الأرض ومضاتها المؤقتة، بينما كان الله يُخرج من الليل نهاره؛ ومهما اشتدت عتمة الطريق، فإن للصبح موعداً لا تؤخره وحشة الليل.

غير أن الخيل لم تصل إلى الصباح لأنها جلست تنتظره، بل وصلت إليه وهي تعدو. وهذه من أجمل معاني الحركة في السورة: إن بعض الناس ينتظرون أن يتغير الزمن ليدؤوا، وبعضهم يعملون في الزمن الصعب حتى يبلغوا زمن التغيير. الأولون يجعلون الصباح شرطاً للحركة، والآخرين يجعلون الحركة طريقاً إلى الصباح. وما أكثر الذين أضاعوا أعمارهم في

انتظار لحظةٍ مثاليةٍ لا تأتي: ينتظر أحدهم أن يزول الخوف كي يكون شجاعاً، وأن تختفي العقبات كي يعمل، وأن يستقيم الناس جميعاً كي يثبت هو على الاستقامة، وأن تهدأ الحياة كي يبدأ رحلته إلى الله؛ لكن الحياة لا تهدأ على الصورة التي يتخيلها، والعمر لا يتوقف حتى تكتمل الظروف.

إن الصباح في هذه الآية ليس وقتاً للاسترخاء، بل ساعة بلوغ الغاية. فبعد الضُّبْح والقُدْح والعدو الطويل جاء أوان الفعل الحاسم. وهذا يعلم الإنسان أن للاستعداد نهايةً يجب بعدها أن يبدأ العمل، وأن التفكير، مهما كان عميقاً، قد يتحول إلى حجابٍ إذا لم يعقبه قرار، وأن جمع الوسائل قد يصبح صورةً مستترّةً من صور الخوف إذا لم يؤدّ إلى الانطلاق.

ثمة أناسٌ يعيشون عمرهم كله في مقدمات المشروعات، ولا يدخلون في المشروعات؛ يدرسون الطريق حتى تنتهي أعمارهم قبل أن يخطوا فيه، ويخشون الخطأ حتى يقعون في خطأ أكبر هو ألا يفعلوا شيئاً، وينتظرون اكتمال قدرتهم مع أن القدرة نفسها

لا تكتمل إلا بالممارسة. أمّا العاديات في هذه السورة فقد انتقلت من الجهد إلى الأثر، ومن الطريق إلى الغاية، ومن قدح الشرر إلى اقتحام الميدان.

ولا ينبغي أن يفهم من الصورة تجيّد للاندفاع الأعمى؛ فالتحليل لم تكن هائلةً بلا وجهة، وإنما كان عدوها منضبطاً بقصد، وإغارتها مرتبطةً بوقت، وحركتها متماسكةً من البداية إلى النهاية. إن السرعة إذا انفصلت عن البصيرة تهور، والشجاعة إذا انفصلت عن الحق عدوان، والقوة إذا لم يضبطها العدل تتحول إلى وحشٍ يلتهم صاحبها قبل أن يلتهم خصومه. وليس كل من اقتحم شجاعاً؛ فقد يقتحم الإنسان بدافع الغضب، أو العصبية، أو الجهل، أو حب الظهور، بينما تكون الشجاعة الحقّة أن يملك نفسه، وأن يعرف متى يمضي ومتى يقف، ومتى يتكلم ومتى يصمت.

ومع ذلك فإن الخوف من الاندفاع لا ينبغي أن يتحول إلى عبادةٍ للتردد؛ فبعض الناس يزيّنون العجز باسم الحكمة، ويغطّون

الجن بثوب التأني، ويسمّون هروبهم من المسؤولية انتظاراً للوقت المناسب. والحكمة ليست أن تؤجل الفعل بلا نهاية، وإنما أن تعرف الوقت ثم تعطيه ما يستحق. وما أعظم الفرق بين من يتأني ليحسن العمل، ومن يتأني لأنه يخشى العمل؛ الأول يتيأ للحظة القرار، والثاني يستخدم التهيؤ كي يهرب من القرار.

وقوله تعالى: ﴿صَبْحًا﴾ يربط الفعل بالوقت؛ فالعمل الصالح ليس صواباً في ذاته وحده، بل من تمام صوابه أن يقع في أوانه. كلمة الحق قد تفقد كثيراً من أثرها إذا جاءت بعد أن ينتهي زمنها، والنصرة إذا تأخرت حتى سقط المظلوم لم تعد نصرةً كاملة، والاعتذار إذا حُبس حتى ماتت المودة قد لا يحيي ما أماته التأخير، والتوبة إذا ظلت مؤجلةً إلى لحظة الغرغرة لم تعد نافعة. ليست الحياة مجموعة أعمالٍ منفصلة عن الزمن؛ فلكل واجبٍ ساعته، ولكل فرصةٍ بابٌ قد يُغلق، ولكل صباحٍ نداءٌ لا يُسمع بعد غروبه.

وهكذا توقظ الآية في النفس فقه المبادرة. فالصباح لا ينتظر المترددين، والفرص لا تبقى مفتوحةً إلى الأبد، والعمر نفسه إغارةٌ سريعةٌ للزمن على ما يملكه الإنسان من أيام. كل فجرٍ يطالع لا يضيف يوماً إلى الحياة فحسب، بل ينتزع يوماً من الرصيد الباقي؛ وما نسميه عمراً قادماً ليس خزانةً مضمونة، بل غيبٌ لا نملك منه لحظة. نحن لا نسير فقط نحو أهدافنا، وإنما يسير أجلاً نحونا، وقد نلتقي به قبل أن نصل إلى كثيرٍ مما سوفنا.

إن العاديات بلغت الصبح بعد رحلة الليل، أما الإنسان فقد يدركه صباح الهداية ثم يؤثر أن يبقى في ظلمات عاداته. ينكشف له الحق فلا يتحرك إليه، ويعرف موطن الداء فلا يعالجه، ويرى قصر الدنيا ثم يعيش كأنها لا تنتهي، ويسمع نداء الله ثم يؤجل الاستجابة. وليست المشكلة دائماً في غياب النور، بل قد تكون في عينٍ أغمضت نفسها بعد أن طلع النور.

والصبح في القرآن زمن كشفٍ وانتقال، تنحسر فيه الظلمة وتتميز المسالك، ولهذا فإن الإغارة فيه توحى بالفعل بعد انكشاف

الوجهة. وليس أجمل في حياة الإنسان من صباح داخليّ يستيقظ فيه من غفلته، ويرى نفسه كما هي، ثم لا يكتفي بالرؤية بل ينطلق لتغيير ما رأى. فقد يعرف المرء عيوبه سنواتٍ ولا يصلحها، ويعرف واجباته ولا يؤديها، ويعرف أن قلبه ابتعد ولا يعود به؛ لأن المعرفة التي لا تتحول إلى إرادة تصبح لونا آخر من ألوان الحجة على صاحبها.

وسوف تقول السورة بعد قليل: ﴿وَأَنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ﴾؛ أي إن الإنسان يشهد من نفسه حقيقة كنوده، ويعرف آثار بحوده، لكنه قد يظل أسيراً له. ومن هنا نفهم أن أزمة الإنسان ليست دائماً أزمة دليل، بل أزمة قرار؛ وليست نقصاً في الضوء، بل ضعفاً في القدرة على مغادرة ما اعتاده. قد يطلع الصبح كاملاً في العقل، بينما يبقى السلوك ساكناً في الليل.

إن ﴿فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا﴾ تعيد تعريف الصباح؛ فليس الصباح مجرد ضوءٍ يقع على الأشياء، بل فرصةٌ لابتداء فعلٍ جديد. وما قيمة أن تتبدل ألوان السماء إذا لم يتبدل شيءٌ في قلب الإنسان؟

وما قيمة أن يستيقظ الجسد كل يومٍ إذا بقي الضمير نائمًا؟ إن أعظم صباح ليس ذلك الذي تشرق فيه الشمس على الأرض، وإنما الذي تشرق فيه الحقيقة داخل النفس، فتنهض من ركام الأمس، وتقتحم مواطن ضعفها، وتستردّ من الهوى ما سلبه منها.

قد يطول ليل الإنسان، وتكثر فيه صخور الطريق، ويشدّ ضبح صدره من التعب، لكنّ العبرة ألا يجعل الليل وطنًا، وألا يحسب التعب نهايةً، وألا يضيع الصباح حين يصل إليه. فما خلق الليل ليقم فيه السائرون، وإنما ليعبروا خلاله إلى الضوء؛ وما خلقت المحنة ليدوب فيها الإنسان، وإنما ليخرج منها أعرف بربه، وأبصر بنفسه، وأشدّ استعدادًا للحظة الفعل.

وإذا كان الصباح قد أدرك العاديات وهي ماضيةً إلى غايتها، فطوبى لمن يدرّكه صباح مصيره وهو ماضٍ إلى ربه؛ لم تُقعد الحجارة، ولم تُخدعه الشرارات الصغيرة عن انتظار النور الكبير، ولم يستهلك أنفاسه في طريقٍ ينتهي بعيدًا عن الله. وطوبى لمن

كان كل صباح في حياته خطوةً إلى صباح لا ليل بعده، حين
تنكشف الحقائق، وتزول الحجب، ويعرف السائرون إلى أين
قادتهم طرقهم.

الفصل الرابع

فَأَثَرُنَ بِهِ نَقْعًا

غبارُ الحركة حين يحجب الأبصار ويكشف الآثار

قال الله تعالى:

﴿فَأَثَرُنَ بِهِ نَقْعًا﴾

لا تزال الفاء تقود المشهد من حركةٍ إلى حركة، ومن أثرٍ إلى أثر؛ فبعد العدو والضَّبح، وبعد قدح الشرر، وبعد الإغارة في الصباح، تبلغ الخيل أرض الغاية، فتضربها بحوافرها المتتابعة، وينبعث من تحتها النقع؛ أي الغبار المرتفع الذي يملأ الفضاء، ويحجب بعض الرؤية، ويعلن أن قوةً هائلةً مرّت من هنا.

والقرآن لا يقول: فظهر الغبار، بل يقول: ﴿فَأَثَرُنَ﴾؛ فينسب الأثر إلى الحركة، ويربط النتيجة بالفعل. فالغبار لم يصعد وحده، وإنما أثارته الحوافر، كما أن التحولات الكبرى في الحياة لا تقع غالباً بلا فاعلٍ يحمل إرادته ويقبل مسؤولية الحركة. إن العالم لا يتغير بمجرد تمنيّ التغيير، والحق لا ينتصر لأنه حقٌّ في ذاته دون

أن يقوم به أهله، والمجتمعات لا تستيقظ بالأحلام التي لا تتحول إلى أفعال، والنفس لا تنزكي لمجرد إعجابها بالطهارة.

ثمة فرق بين إنسان يمر بالحياة مروراً لا يحدث فيها أثراً، وإنسان يمضي في طريقه فتشهد له الأرض أنه عبر. وليس الأثر المقصود هو الضجيج، ولا الشهرة، ولا أن يعرف الناس الاسم؛ فقد يكون المرء مشهوراً ولا يترك في الأرواح إلا التعب، وقد يعيش آخر مجهولاً ويترك في قلب واحد من النور ما يمتد بعد موته أجيالاً. إن حقيقة الأثر ليست في مقدار الغبار الذي يعلو حول الإنسان، بل في مقدار الخير الذي يبقى بعد أن يهبط الغبار.

وهذه الآية، وهي ترسم النقع المتصاعد، تضعنا أمام مفارقة دقيقة: الحركة تكشف وجود الفعل، لكنها قد تحجب تفاصيله في لحظته. فالغبار شاهدٌ على أن شيئاً يجري، لكنه في الوقت نفسه يحول بين العين وبين الرؤية الواضحة. وهكذا كثير من أحداث الحياة؛ تقع في قلبها فلا تدرك حكامتها كاملة، وترى اضطرابها ولا ترى مآلها، وتحاصرك غيومها فلا تستطيع أن تميز

الطريق البعيد. لا ينقصك الإيمان لأنك لم تفهم كل شيء، ولا يعني غياب الصورة الكاملة أن الحكمة غائبة؛ فقد تكون داخل غبار الحدث، بينما الله يرى بدايته ونهايته وما بينهما.

إن الإنسان، حين يشتد عليه البلاء، يريد جواباً فورياً يبدد حيرته، ويريد أن تنكشف له حكمة كل ألم في لحظته، وأن يعرف سبب كل فقدٍ وغاية كل تأخير. لكن بعض المعاني لا تُرى إلا بعد أن يسكن النقع، وبعض الحكم لا تظهر إلا حين نبتعد عن الحادثة، وبعض الأقدار لا يفهم موقعها في البناء إلا بعد أن تكتمل أجزاء كثيرة منه. ولو اطلع الإنسان على الحكمة كلها في أول الطريق لما بقي للثقة بالغيب معناها، ولا للتوكل امتحانه، ولا للصبر منزلته.

وليس معنى ذلك أن كل اضطرابٍ حكمةٌ من جهة فاعله البشري؛ فالظلم ظلم، والعدوان عدوان، والخطأ لا يصبح صواباً لأن الزمن قد يكشف عنه منفعةً غير مقصودة. لكن الله سبحانه قادرٌ أن يُخرج من قلب ما يكرهه المؤمن أبواباً من الخير

لم يكن يراها، وأن يجعل المحنة التي لم يخترها الإنسان سبباً في يقظةٍ يختار بها طريقاً جديداً. فليس كل غبارٍ علامة هداية، لكن عين الإيمان لا تستسلم للغبار ولا تظن أنه الصورة النهائية. وقد يكون النقع في الحياة فكرياً ونفسياً، لا غباراً مادياً فحسب؛ تشتبك الأصوات، وتكثر الدعوات، وتختلط الحقيقة بالمصلحة، ويصبح الإنسان محاطاً بضجيجٍ يجعله عاجزاً عن تمييز الجهات. في مثل هذه اللحظات لا تنقذه كثرة المعلومات وحدها، بل يحتاج إلى ميزانٍ أخلاقي، وبصيرةٍ هادئة، ومرجعيةٍ لا تتبدل مع اتجاه الريح. إن الضجيج قد يمنح الباطل حجماً أكبر من حقيقته، والتكرار قد يجعل الوهم يبدو كأنه برهان، والغبار قد يُخفي جيشاً كاملاً أو يصنع في الخيال جيشاً لا وجود له.

ولهذا فإن المؤمن لا يحكم على الأشياء في ذروة غبارها فقط؛ يتثبت، وينظر في العواقب، ولا يسمح لحرارة اللحظة أن تمتزج منه عدله. فكم من كلمةٍ قيلت في زمن الغضب، فلها هبط غبار النفس ظهرت فداحتها! وكم من موقفٍ اتُّخذ تحت ضغط

الجماعة، فلها انفضّ الجمع بقي الإنسان وحيداً أمام مسؤوليته! وكم من خصومةٍ كبرت لأن أطرافها لم تنتظر لحظة صفاءٍ واحدة، فكانت النفوس تقذف أحكامها من خلف ستارٍ كثيفٍ من الانفعال!

إن النقع لا يحجب الآخرين عنك فحسب، بل قد يحجبك عن نفسك؛ فحين تغضب لا ترى مقدار ظلمك، وحين تطمع لا ترى قبح وسيلتك، وحين تتعصب لا ترى فضل خصمك، وحين تخاف لا ترى قوتك، وحين تغترّ لا ترى ضعفك. وما أشد حاجة الإنسان إلى مسافةٍ بين الشعور والحكم، وبين الاستفزاز والرد، وبين الخبر والموقف؛ لأن السرعة التي كانت فضيلةً في حركة العاديات قد تتحول في ميدان الحكم على الناس إلى تهوٍ يهدم الحق.

وفي الصورة ملهحٌ آخر: الغبار يرتفع عالياً، لكنه لا يبقى عالياً؛ فما أثارته الحركة يعود إلى الأرض حين تهدأ الحركة. وهذه طبيعة كثيرٍ من الضجيج البشري؛ يملأ الآفاق ساعةً ثم لا يبقى

منه شيء. أسماءٌ كانت تهزّ المجالس ثم طواها النسيان، ومعارك
ظن أصحابها أنها مركز التاريخ ثم أصبحت هامشاً صغيراً في كتاب
الزمن، وأصواتٌ ملأت الدنيا ادعاءً ثم لم يبق منها إلا ما قدّمته
من خيرٍ أو شر.

الغبار ابن اللحظة، أمّا الأثر الأخلاقي فابن المصير. ولذلك لا
ينبغي للإنسان أن يخلط بين علوّ الغبار وعلوّ المقام؛ فليس كل
من كثر حوله الضجيج عظيمًا، وليس كل من سكنت من
حوله الأصوات صغيراً. قد يصنع الباطل حول نفسه سحبا من
الدعاية تمنع الناس من رؤية هشاشته، وقد يعمل الحق في صمتٍ
حتى إذا هبط الغبار ظهر أنه كان الأكثر ثباتاً والأعمق أثراً.

ومن أوجع أخطاء الإنسان أن ينشغل بالغبار الذي يثيره أكثر
من انشغاله بالغاية التي يقصدها؛ يريد أن يُرى وهو يعمل، وأن
يُسمع وهو يتكلم، وأن يُذكر اسمه كلما ذُكر الخير. فإذا غابت عنه
أعين الناس فترت همته، كأنما كان يعبد صورته في نفوسهم، لا
ربه الذي لا تغيب عنه خافية. أمّا المخلص فإنه لا يقيس قيمة

فعله بارتفاع الضجيج حوله، بل بقبوله عند الله؛ لأنه يعلم أن كثيراً من الأعمال العظيمة تبدأ هادئةً كالنبح، ثم تمضي في الأرض حياةً لا يُعرف أول من أطلقها.

إن ﴿فَأَثَرُنَ بِهِ نَقْعًا﴾ تعلمنا أن للحركة ثمناً وأثراً؛ فمن تحرك في الواقع أثار شيئاً، وربما واجه التباساً، وربما حُجبت عنه بعض الرؤية. فلا عمل بلا تبعة، ولا تغيير بلا مقاومة، ولا اقتحام بلا غبار. لكن الحكمة أن يبقى القلب مبصراً حين تحجب الأتربة الأبصار، وأن تظل الغاية واضحةً حين تضطرب التفاصيل، وألا يتحول النقع من ظاهرةٍ حول الإنسان إلى ظلمةٍ تستقر داخله.

وسوف تنتقل السورة من الغبار الذي يملأ الفضاء إلى الكنود الذي يملأ القلب، ثم إلى القبور التي ستُبْعَثُ والصدور التي ستُحْصَل. وكأنها تقول إن غبار الأرض، مهما علا، سيهبط، أما ما يستقر في الصدر من نيةٍ وحبٍّ وحمود فسوف يُسْتَخْرَج يوماً، ويُعْرَضُ أمام علم الله. ما تُثِيرُهُ الحوافر فوق التراب عابر، وما تخفيه القلوب تحت الأضلاع هو الذي يقرر المصير.

فلا تخدعك كثافة النقع عن صلابة الحقيقة؛ سيهدأ كل
صخب، وتتوقف كل حركة، وتنتهي كل معركة، ثم يبقى
السؤال الذي لا يحجبه غبار: ماذا كنت تريد؟ ولمن كنت
تعمل؟ وما الذي بقي في قلبك حين انفضّ الناس، وسكنت
الحوافر، وانقشع النقع؟

الفصل الخامس

فَوْسَطُنَ بِهِ جَمْعًا

اقتحامُ المركز والعبور إلى قلب الحقيقة

تبلغ الصورة ذروتها في قوله تعالى:

﴿فَوْسَطُنَ بِهِ جَمْعًا﴾

لقد عدت الخيل حتى ضبحت، وضربت الحجارة حتى أورت، وأغارت في الصباح، وأثارت النقع، ثم لم تتوقف عند أطراف المكان، ولم تتردد أمام كثافة الجمع، بل دخلت في وسطه. إن كل حركةٍ سابقةٍ كانت تمهيداً لهذه اللحظة: لحظة بلوغ المركز، والانتقال من الطريق إلى قلب الميدان، ومن الاستعداد إلى المواجهة، ومن الاقتراب من الغاية إلى الدخول فيها.

والوسط هنا ليس نقطةً جغرافيةً فحسب، وإنما هو موضع الخطر والكثافة والحسم؛ فالوقوف عند الأطراف أيسر، والدوران حول الجمع أكثر أماناً، أما بلوغ الوسط فيقتضي قوة اندفاعٍ وثباتاً لا يتبدد عند أول مواجهة. وبهذه الخاتمة يكتمل مشهد القسم:

ليست خيالاً استعرضت سرعتها ثم عادت، ولا حركةً ألهبت الخيال دون نتيجة، بل قوةً مضت حتى أدت مهمتها وبلغت غايتها.

وهنا يبرز معنى إنسانيُّ بالغ العمق: كثيرون يقتربون من الحقائق، وقليلون يدخلون إلى قلبها؛ كثيرون يتحدثون عن المشكلات من أطرافها، وقليلون يملكون شجاعة الوصول إلى جذورها؛ كثيرون يصفون الألم، وقليلون يلامسون سببه؛ كثيرون يعلنون رغبتهم في تغيير أنفسهم، لكنهم يقفون عند تحسين الصورة الظاهرة، ولا ينزلون إلى المركز الذي نتولد منه أفعالهم: القلب، والنية، والحب، والخوف، والتعلق.

إن الإنسان بارعٌ في إجراء المعارك بعيداً عن موضع الداء. يغيّر عاداته الصغيرة ويبقي الهوى الذي يصنعها، يعدّل كلماته ويترك الكبر الذي يلدها، ويعتذر عن فعلٍ واحدٍ ولا يراجع البنية الداخلية التي تكرر الفعل نفسه، ويشكو من ضعف الطاعة بينما لا يريد أن يمسّ التعلقات التي تستنزف قلبه. يظل يدور حول

نفسه ولا يدخل إليها؛ لأن بلوغ مركز الحقيقة مؤلم، والوقوف على الأطراف يسمح له أن يتوهم أنه يعالجها.

ولكن سورة العاديات لا تقف عند الأطراف؛ تبدأ من ظاهر الحركة ثم تقتحم باطن الإنسان، فتصل بعد مشهد الخيل مباشرة إلى قلب المأساة: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾. وكما توسطت الخيل الجمع، يتوسط البيان القرآني دفاعات النفس، ويصل إلى الحقيقة التي تحاول أن تخفيها تحت الأعذار والزينة. إن النقلة من ﴿فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا﴾ إلى ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾ نقلةٌ تشبه الاقتحام نفسه؛ لم يمنح القرآن الإنسان وقتاً ليتيأ للمواجهة، بل وضع الكلمة في قلبه دفعةً واحدة.

وإذا كان وسط الجمع أخطر مواضعه، فإن وسط النفس أخطر ميادينها؛ لأن الإنسان يستطيع أن ينتصر على أشياء كثيرة خارجة ثم يهزم أمام رغبةٍ صغيرةٍ داخله. قد يواجه الناس بشجاعة، لكنه لا يواجه نفسه بصدق؛ وقد يملك حجةً على كل خصم، لكنه يعجز عن إقامة الحجّة على هواه؛ وقد يصبر على أذى

الآخرين، لكنه لا يصبر عن شهوة اعتادها. وما قيمة أن يقتحم
المرء حصون العالم إذا بقي أسيراً داخل حصنه الباطني؟

إن أشقَّ شجاعةٍ هي أن يتوسط الإنسان جمع عيوبه، فلا يهرب
من رؤيتها، ولا يضعها كلها على أكثاف الظروف، ولا يحتمي
بتاريخ آلامه ليبرر كل أخطائه. أن يقول: نعم، لقد ظلمني غيري،
لكن هذا لا يجعل ظلمي حقاً؛ وتأملت، لكن ألمي لا يمنحني
رخصةً لأؤلم الأبرياء؛ ونشأت في بيئةٍ صنعت بعض ضعفي،
لكن الله أعطاني من العقل والإرادة والهداية ما أبدأ به التحرر.
هذه مواجهةٌ لا يسمع الناس ضجيجها، لكنها قد تكون أعظم
معارك الإنسان.

والآية تعلمنا كذلك أن الغايات الكبرى لا تُنال بنصف
عزيمة؛ فالذي يخاف كل خوفٍ لا يبلغ الوسط، والذي يريد أن
يحتفظ بسلامته كاملةً مع أداء رسالته كاملةً يطلب اجتماع ما
لا يجتمع دائماً. ليس المقصود أن يلقي الإنسان بنفسه في التهلكة،
ولا أن يجعل التهور فضيلة، ولكن أن يدرك أن للحق تكاليف،

وأن بعض المواقف لا يمكن دخولها دون احتمال الخسارة.
فالصدق قد يكلفك قبول الناس، والعدل قد يكلفك رضا
الأقربين، والاستقامة قد تحرمك مكسباً سريعاً، والوفاء قد
يجعلك تحمل ما يفرّ منه غيرك.

وليس أعظم من الفرق بين من يعيش في هامش ذاته ومن
يبلغ مركزها. إنسان الهامش تحدده ردود أفعال الناس، فإذا
مدحوه رضي، وإذا ذمّوه انهيار، وإذا أقيمت الدنيا عليه وثق
بنفسه، وإذا أدبرت ظن أن قيمته قد ذهبت معها. أما إنسان
المركز فقد بنى قلبه على معرفة الله، وصار يستمد ميزانه من
حقيقة أعمق من تقلبات المزاج العام. يسمع الناس لكنه لا يعبد
أصواتهم، وينتفع بالنقد لكنه لا يسلم للآخرين مفاتيح قيمته،
ويحب القبول لكنه لا يشتريه بخيانة ما يؤمن به.

والجمع في الآية يوحى بالكثرة، غير أن الكثرة لا توقف
العاديات عن التقدم. وهذا يوقظ في القلب سؤال العلاقة بين
الحق والعدد؛ فليس كل ما اجتمع عليه الناس حقاً، وليس كل

ما انفرد به المرء باطلاً. العدد قوةٌ في الواقع، لكنه ليس برهاناً في المعرفة، وإجماع الأصوات على الوهم لا يحوله إلى حقيقة. وقد يعيش الإنسان في زمنٍ تتكاثر فيه المقولات حتى يظن أن تكرارها يغنيه عن اختبارها، فتأتي السورة لتذكّره بأن عليه ألا يقف مرعوباً أمام كثافة الجمع، وأن يزن الأقوال بميزان الحق لا بميزان الضجيج.

غير أن مخالفة الجمع ليست فضيلةً في ذاتها كذلك؛ فقد ينفرد الإنسان بالباطل كما قد يثبت منفرداً على الحق. العبرة ليست أن تكون مع الناس أو ضدهم، بل أن تكون مع الحق حيث كان، وألا تجعل الكثرة دليلاً وحيداً، ولا الاختلاف بطولةً مصطنعة. فالبصيرة لا تُقاس بمقدار المعارضة، وإنما بصدق الدليل وعدل القصد ونقاء الوسيلة.

وفي قوله: ﴿فَوَسَّطَنَ﴾ فعلٌ يدل على تمام الدخول؛ لم تعد الخليل ترى الجمع من بعيد، بل صارت في قلبه. وهكذا لا يُعرف الإيمان من شاطئ الحياة، بل في لجّتها؛ لا يُعرف معنى التوكل

والإنسان لم يواجه فقدًا، ولا معنى الصبر وهو لم يذق ألمًا، ولا معنى الأمانة وهو لم يملك فرصة الخيانة، ولا معنى الرحمة وهو لم يقدر على الإيذاء. القيم تُختبر في الوسط، حيث تتشابك المصالح، وتضيق الخيارات، وتظهر الكلفة.

وقد هيأت هذه الآيات الخمس الأذن لقوة الجواب الذي سيأتي بعدها. إن الله تعالى يقسم بهذا المشهد المتتابع على حقيقةٍ نتصل بالإنسان: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾. وكلما كانت صورة المقسم به ممتلئةً بالحركة والوفاء والبذل، ظهر قبح الكنود أشدَّ ظهورًا. الخيل تجهد نفسها لمن يملك زمامها، والإنسان يجحد ربًّا يملك وجوده كله؛ الخيل تعطي المأمور به طاقتها، والإنسان يجحد بحق من أعطاه الطاقة؛ الخيل تعبر الخطر ولا تلتفت، والإنسان تعوقه عن ربه شهوةٌ عابرةٌ أو منفعةٌ قريبة.

ليس المقصود أن نُسقط على الحيوان تكليف الإنسان، وإنما أن نرى المفارقة التصويرية التي تقيمها السورة: مشهدٌ بالغ الوفاء في أداء ما سُخر له، يقابله جحود الإنسان لمن خلقه وسخر له ما في

السموات وما في الأرض. ولهذا يبدو الانتقال إلى الحديث عن
الكنود كأنه حكمٌ ينزل بعد اكتمال الشهادة؛ فقد شهدت
العاديات بحركتها، وشهد الشرر والنقع ووسط الجمع، ثم حان أن
يقف الإنسان أمام المرأة.

إن كل واحدٍ منا يحمل في داخله جمعاً من الرغبات والمخاوف
والذكريات والأهواء، ولا يصل إلى سلامه الحقيقي ما دام يدور
حولها من بعيد. لا بد أن يتوسطها بنور الوحي، وأن يعرف أيها
يقوده إلى الله وأيها يقوده بعيداً عنه، وأن يردّ الحب إلى موضعه،
والخوف إلى حده، والمال إلى وظيفته، والنفس إلى عبوديتها.
فالإصلاح ليس طلاءً جديداً على أطراف الحياة، وإنما اقتحامٌ
لمركزها.

وحين تبلغ السورة مركز الجمع في أولها، فإنها تتهيأ لبلوغ مركز
الإنسان في وسطها، ثم ستبلغ أعماق أعماقه في قول الله تعالى:
﴿وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ﴾. يبدأ الاقتحام في ساحة خارجية،
وينتهي في صدرٍ داخلي؛ يبدأ بخيلٍ تشق الجمع، وينتهي بعلمٍ إلهيٍّ

يكشف السرية؛ وما بين المراكز يقف الإنسان عارياً من
أوهامه، مدعواً إلى أن يقتحم حقيقة نفسه قبل أن يأتي يومٌ
تُقتحم فيه القبور وتُستخرج فيه الصدور.

إن أشجع الناس ليس من بلغ قلب صفوف خصمه فحسب، بل
من بلغ قلب نفسه، فرأى كنودها، وشهد تعلقها، وعرف ما
تخفيه، ثم عاد بها إلى الله قبل أن يُعثر قبره ويُحصّل صدره.
فهنالك معارك تُكسب بالقوة، ومعارك تُكسب بالبصيرة، أما
معركة الإنسان مع جحوده وهواه فلا تُكسب إلا بصدق لا يرحم
الوهم، ورحمة لا تبيّس النفس، وعبودية تعيد القلب إلى مركزه
الصحيح: بين يدي ربه.

الفصل السادس

إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ

حين ينسى القلب يد النعمة ولا يتذكر إلا مواضع الحرمان

بعد ذلك المشهد المتدفق بالحركة، وبعد أن امتلأت الأذن بضبح الخيل، وامتلأت العين بشرر الحوافر وغبار الأرض، وبعد أن بلغت العاديات قلب الجمع، ينقطع المشهد فجأة، وتسكن الخيل، ويهبط الصوت القرآني من ظاهر الميدان إلى أعماق النفس، وتأتي الحقيقة التي أقيم القسم كله من أجلها:

﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾

هذه الجملة هي جواب القسم، وهي قلب السورة ومحور بنائها؛ فالله تعالى لم يقسم بذلك المشهد الهائل ليحدثنا عن الخيل وحدها، وإنما ليكشف الإنسان لنفسه. لقد رأينا في الآيات السابقة مخلوقات تبذل أقصى طاقتها فيما سُخِّرَتْ له، حتى تضبح من شدة العدو، وتقذح من الصخر ناراً، وتعبّر الليل، وتقتمح الجمع؛ ثم رأينا الإنسان في الجهة المقابلة، محاطاً بنعم الله، قائماً

بفضله، متقلباً في رزقه وستره ورحمته، ولكنه يقابل ذلك كله بالكنود.

والكنود هو شديد الكفران والجحود، الذي لا يؤدي شكر النعمة، ولا يستحضر فضل المنعم، ويجعل ما فاته أكبر في عينه مما أعطى. واستعمل اللفظ في العربية لما لا يظهر خيراً ولا يُثر نفعاً، حتى قيل للأرض التي لا تُنبِت: أرضُ كنود؛ فكأن النعم تنزل على هذا القلب كما ينزل المطر على أرضٍ صلبة لا تستجيب، فلا تُخرج شكراً، ولا محبةً، ولا طاعة، ولا اعترافاً بالفضل.

وما أثقل هذه الكلمة: ﴿لَكُنُودٌ﴾. لقد اجتمع فيها التوكيد والقوة والإيجاز؛ فالجملة مسبوقة بـ ﴿إِنَّ﴾، ومؤكدة باللام، ثم جاءت الصفة على صيغةٍ تحمل معنى الرسوخ والثبات. ليست غفلةً عابرةً وقعت مرة، ولا نسياناً طارئاً سرعان ما يزول، بل نزعةٌ كامنةٌ في النفس إذا تُركت بلا إيمانٍ يزيكها، وبلا ذكرٍ يوقظها، وبلا محاسبةٍ تردّها إلى العدل.

والسورة لا تقول: إن الإنسان كنود، بل تقول: ﴿لَرَبِّهِ
لَكُنُودٌ﴾؛ فتذكر الربوبية قبل وصف الجحود، ليظهر قبحه في أشد
صوره. إنه لا يجحد غريباً لم يصنع له معروفاً، بل يجحد ربّه:
الذي خلقه من عدم، وسوّاه من نطفة، ونفخ فيه الروح، وألبسه
صورة الإنسان، وأعطاه السمع والبصر والفؤاد، وحمله في ضعف
طفولته، وأطعمه قبل أن يعرف معنى الطعام، وحفظه من
أخطارٍ لم يرها، وفتح له من أبواب الرحمة ما لم يسأله، وستره في
مواضع لو كُشف فيها لهلك نجلاً، وأمّله بعد الذنب، ودعاه بعد
الإعراض، وأرسل إليه الهدى كيلا يضيع في ظلمات نفسه.

اختيار لفظ ﴿رَبِّهِ﴾ بالغ الدلالة؛ فالرب هو المالك المدير،
والمربي المنعم، الذي ينقل عبده من حالٍ إلى حال، ويقيم
وجوده لحظةً بعد لحظة. والإنسان لا يعيش لحظةً واحدةً
مستقلاً عن ربّه؛ كل نبضةٍ في قلبه مدد، وكل نفسٍ في صدره
عطية، وكل قدرةٍ على الحركة منحة، وكل فكرةٍ تمر في عقله
قائمةٌ بإذن الله. ومع ذلك قد يستخدم النعمة في نسيان المنعم،
ويستعين بالقوة التي وهبها الله له على معصيته، ويستخدم العقل

الذي كرمه به ليجادل في حقه، ويطلب باللسان الذي أنطقه به رضا الناس أكثر مما يطلب رضاه.

وهذه هي مأساة الكنود: أن يعيش الإنسان داخل النعمة دون أن يرى يد المنعم؛ أن ينشغل بالأشياء عن مصدرها، وبالعطايا عن واهبها، وبالأسباب عن مسببها، حتى يصبح الكون في عينه مخزنًا لمطالبه لا محرابًا يعرفه بربه. يرى الطعام ولا يرى الرحمة التي ساقته، ويرى البيت ولا يرى السكينة التي أودعها الله فيه، ويرى الصديق ولا يرى لطف الله الذي أرسله إلى وحدته، ويرى نجاته ولا يرى الأخطار التي صرفها الله عنه قبل أن يشعر بها.

الكنود لا يعني دائماً أن ينكر الإنسان النعمة بلسانه؛ فقد يقول: الحمد لله، بينما تقوم طريقة حياته كلها على الجحود. يكون كنوداً حين يتعامل مع النعمة كأنها حقٌّ واجبٌ له، فإذا استمرت لم يلتفت إليها، وإذا نقصت قليلاً امتلاً اعتراضاً. يكون كنوداً حين يعتاد العافية حتى لا يراها، ويعتاد الأمن حتى يظنه أمراً طبيعياً،

ويعتاد وجود الأحبة حتى لا يعرف قيمة بقائهم، ثم لا يستيقظ
لمعنى العطاء إلا بعد أن يفقده.

إن النفس البشرية تملك قدرةً عجيبةً على الاعتياد؛ وما تعتاده
يتوارى عن شعورها مهما كان عظيمًا. يفتح الإنسان عينيه كل
صباح فلا يندهش من البصر، ويقف على قدميه فلا يشعر
بمعجزة التوازن، ويتنفس آلاف المرات فلا يتوقف عند الهواء،
ويتكلم فيفهمه الآخرون فلا يرى في البيان نعمةً كبرى. فإذا
أصاب إحدى هذه النعم خللٌ يسير، عرف فجأةً أنه كان يعيش
داخل كنوزٍ لم يكن يراها.

ليس الفقر الحقيقي أن تقلَّ نعم الإنسان فقط، بل قد يكون
أن تكثر النعم وتضعف القدرة على رؤيتها. وقد يمتلك المرء أشياء
كثيرةً، لكنه يعيش في شعور الحرمان؛ لأن عينه لا تقع إلا على
ما في أيدي الآخرين، وقلبه لا يحصي إلا ما فاتته. يقيس حياته بما
ينقصها، لا بما امتلأت به؛ ويتذكر باباً أغلق، وينسى أبواباً

فُتحت؛ ويتألم من دعوةٍ تأخرت إجابتها، وينسى مئات العطايا التي جاءتته قبل أن يسأل.

ولذلك قيل في تصوير الكنود: هو الذي يعدّ المصائب وينسى النعم. وهذه ليست عبارةً تصف الذاكرة وحدها، بل تكشف اختلال الميزان الداخلي؛ فالكنود شديد الحفظ لما آلمه، سريع النسيان لما أكرمه. يستطيع أن يروي تفاصيل الإساءات التي تعرّض لها منذ أعوام، لكنه لا يستحضر بالوضوح نفسه وجوه الرحمة التي أحاطت به. يكتب للحرمان سجلاً كاملاً، بينما يترك العطايا بلا تاريخ.

وقد يعيش الإنسان عمراً كاملاً يحمل في صدره مظلمةً واحدةً، حتى تطفئ في شعوره على نعمٍ لا تُحصى. لا يُطلب منه أن ينكر ألمه، فالإسلام لا يكلف الإنسان أن يسمي الجرح عافيةً، ولا أن يتصنع الفرح حين يحزن؛ ولكن يُطلب منه ألا يجعل الألم الحقيقة الوحيدة في حياته، وألا يسمح للنعمة الغائبة أن تحو من

قلبه شكر النعم الحاضرة. فالعدل مع الله يقتضي أن يرى الإنسان المشهد كله، لا الجزء الذي يوافق حزنه.

إن الشاكر قد يتألم كما يتألم الكنود، ويفقد كما يفقد، ويبكي كما يبكي؛ لكن الفرق أن الألم لا يعميه عن الرحمة، والفقد لا يحو من ذاكرته ما بقي، والدمعة لا تحجبه عن حكمة الله. يقول قلبه: لقد أصابني ما يؤلمني، ولكن كم دفع الله عني ما هو أشد! لقد فقدت شيئاً عزيزاً، ولكن كم منحني الله ما لم أكن أستحق! لقد ضاق عليّ باب، لكن رحمته أوسع من الباب، وعلمه أبعد من لحظتي، واختياره لي خيرٌ من اختياري لنفسي وإن عجزت الآن عن فهمه.

أما الكنود فيحول النعمة إلى عادة، والحرمان إلى قضية، والابتلاء إلى تهمة، والتأخير إلى دليل على أنه منسي. يريد من الله أن تسير الأقدار على الصورة التي رسمها، فإذا جاءت الحكمة في صورة أخرى اتهم الحياة كلها بالقسوة. إنه لا يرفض نعمةً بعينها فقط، بل يرفض أن يكون عبداً لربٍّ حكيم؛ يريد عطاءً بلا

اختبار، ورحمةً بلا تربية، واستجابةً بلا توقيت، وحياةً لا تمرّ به
إلا فيما يوافق هواه.

وهنا تنكشف صلة الكنود بحب السيطرة؛ فالإنسان لا يحدد
لأن النعم معدومة، بل لأنه يريد أن يحدد هو نوع النعمة
وموعدها وطريق وصولها. قد يعطيه الله ما يصلحه، بينما يريد ما
يشتهيهِ؛ ويحميه بالمنع، بينما لا يفهم الحماية إلا في العطاء؛ ويؤخر
عنه شيئاً لأن وقته لم يأت، بينما يرى هو التأخير حرماناً محضاً.
إن العبد يرى لحظته، أما الرب فيرى الرحلة كلها؛ والعبد يرى
ظاهر الرغبة، أما الرب فيعلم أثرها في دينه وقلبه ومستقبله
ومصيره.

والكنود لا يظهر في العلاقة بالله وحدها، بل يمتد أثره إلى
علاقات الإنسان كلها؛ فمن لم يتربَّ على رؤية فضل الله قد يعجز
عن رؤية فضل الناس. ينسى سنوات الإحسان عند زلة، ويحو
تاريخ المودة بموقف، ويقابل المعروف الطويل بعتابٍ لا يترك
للفضل موضعاً. إن القلب الذي اعتاد الجحود لا يغيّر عادته حين

ينتقل من الخالق إلى الخلق، والقلب الذي تعلّم الشكر لله يصبح أقدر على الوفاء للناس؛ لأنه يرى الجميل، ويحفظه، ولا يسمح لعارض الخلاف أن يحوّل أصول المودة.

من هنا يصبح الشكر أكثر من كلمة؛ إنه طريقةٌ في الرؤية، ونظامٌ لإعادة ترتيب الوعي. الشكر أن ترى الوجود هبة، وأن تعرف أن ما معك ليس استحقاقاً ذاتياً، وأن تستقبل النعمة بالتواضع لا بالغرور، وأن تتحول العطية في يدك إلى خيرٍ يصل إلى غيرك. فالمال لا يُشكر باللسان وحده، بل بأن يُطلب من حلالٍ ويُنفق في حق؛ والعلم لا يُشكر بكثرة الحديث عنه، بل بأن يقود صاحبه إلى التواضع وينفع به الناس؛ والقوة لا تُشكر باستعراضها، بل بكفها عن الظلم وتسخيرها لنصرة الضعيف.

إن الشكر الحق يغيّر وظيفة النعمة؛ فإذا شكر الإنسان بصره لم يطلقه في الحرام، وإذا شكر لسانه لم يجعله أداة غيبةٍ وكذب، وإذا شكر عقله لم يستخدمه في تزيين الباطل، وإذا شكر مكانته لم يتخذها سُلماً لاستصغار الناس. أمّا أن يقول: الحمد لله، ثم يجعل

كل ما أعطاه الله وسيلةً لمخالفته، فذلك شكر اللسان الذي تكذّبه الجوارح.

وتكشف الآية أن الكنود متجهٌ إلى الرب: ﴿لِرَبِّهِ﴾؛ وهذا يذكّرنا بأن كل معصيةٍ تحمل في باطنها قدرًا من نسيان الربوبية، وإن لم تكن بجوداً صريحاً لها. فالذي يعصي يستحضر لذة الفعل وينسى نظر الله إليه، ويستحضر حاجته العاجلة وينسى حكمة الأمر، ويستحضر ضغط الناس وينسى أنه سيقف منفرداً أمام رب الناس. إن حضور الله في القلب ليس معلومةً عقديّةً فقط، بل قوةٌ أخلاقيةٌ تضبط الإنسان حين تغيب العيون وتضعف الرقابة.

ولا يعني قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ﴾ أن كل إنسانٍ محكومٌ عليه بالكنود حكماً لا مفر منه، وإنما يكشف عن قابليةٍ أصيلةٍ في النفس إذا لم يزكّها الإيمان؛ فالقرآن يصف الإنسان في مواضع بالعجلة والهلع والضعف والجهل، ثم يبين أن الإيمان والتقوى والصلاة والصبر تُخرجه من أسر هذه النزعات. إن الوحي لا

يفضح الإنسان ليغلق أمامه باب النجاة، بل يريه موضع الداء كي يبدأ العلاج.

فأول طريق الشكر أن يعرف المرء في نفسه مادة الكنود، وآلا يتعامل مع الآية كأنها تصف إنساناً آخر بعيداً عنه. ما أسرع النفس إلى تلاوة آيات الذم وهي تستحضر خصومها! تسمع عن الجحود فتتذكر جاحداً أساء إليها، وتسمع عن الظلم فتستعرض وجوه ظالمها، وتسمع عن النفاق فتبحث عن علاماته في غيرها. أما القرآن فيريد أن يدخل إلى المركز: أنت المقصود بالمراجعة، وقلبك هو الميدان، وسريرتك هي التي ستُحصّل.

اسأل نفسك: كم نعمةً تحيط بي ولا أشعر بها؟ كم دعاءً أجابه الله ثم نسيته بعد أن صار جزءاً من حياتي؟ كم خطراً دفعه عني دون أن أعلم؟ كم مرةً سترني بعد زلتي، وأمهلني بعد تقصيري، وفتح لي باب العودة؟ كم مرةً شكوت تأخر ما أريد، ثم اكتشفت أن التأخير كان نجاة؟ وكم مرةً أحزني المنع، ثم عرفت أن ما منعته كان سيأخذ من روحي أكثر مما يعطي يدي؟

وحين يبدأ الإنسان في هذا الإحصاء يدرك أن حياته لم تكن سلسلةً من الاستحقاقات، بل سيلاً من الرحمة. حتى قدرته على رؤية تقصيره نعمة، وندمه على كنوده نعمة، وعودته إلى الله بعد الغفلة نعمة. ما دام القلب يتألم لبعده فهو لم يمّت، وما دام يعرف طريق الرجوع فالباب لم يُغلق، وما دام الله يذكره فقد أراد به خيراً.

وتأتي المفارقة الكبرى من مقابلة الإنسان بالعاديّات: الخيل تركض حتى تضبح، والإنسان قد تثقل عليه خطواتٌ قليلةٌ إلى الطاعة؛ الخيل تقدح الحجارة بحوافرها، والإنسان لا تقدح المواعظ قلبه؛ الخيل تقتحم الجمع فيما سُخّرت له، والإنسان يتراجع أمام شهوةٍ عن الغاية التي خُلق لها. كأن السورة تقول له: انظر إلى هذا المخلوق كيف استنفد طاقته في أداء مهمته، ثم انظر إلى نفسك، وقد أُعطيتَ العقل والوحي والعمر؛ فأين أنت من الغاية؟

لكن القرآن لا يريد للإنسان أن يتحول إلى حركةٍ جسديةٍ عمياء، بل أن يكون قلبه أسرع إلى الله من عدوه إلى الدنيا، وأن يكون شكره في مستوى عطاياه، وأن يجعل نِعَمَ ربه جسوراً إليه لا حجباً عنه. فالنعمة التي تقودك إلى الله رحمة، والنعمة التي تستغرقك عن الله اختبار، والنعمة التي تستخدمها في معصيته حجةٌ عليك.

إن أخطر ما في الكنود أنه قد يعيش متخفياً داخل التدين نفسه؛ يصلي الإنسان لكنه لا يشعر بعظمة أن الله أذن له أن يقف بين يديه، ويقرأ القرآن لكنه يتعامل معه كواجبٍ ثقيل لا نخطابٍ من رب العالمين، ويدعو لكنه لا يرى من الإجابات إلا ما جاء مطابقاً لتصوره. وقد يكثر من العبادة ثم يظل ساخطاً على رزقه، معترضاً على أقداره، ناظراً إلى نفسه كأنها قدّمت لله ما يوجب عليه أن يعطيها ما تشاء. وهنا تتحول الطاعة من مقام عبوديةٍ وامتنانٍ إلى معاملةٍ خفيةٍ تقوم على المطالبة.

العبد الشاكر لا يمين على الله بطاعته؛ لأنه يعلم أن توفيقه للطاعة
نعمةٌ أخرى تحتاج إلى شكر. لم يصلِّ بقوةٍ مستقلةٍ عن الله، ولم
يهتدِ بذكاءٍ صنعه لنفسه، ولم يثبت لأنه يملك قلبه؛ بل الله هداه
وأعانه وثبته وفتح له باب المناجاة. فإذا قام بعملٍ صالحٍ قال
بقلبه قبل لسانه: هذا من فضل ربي، لا هذا من فضل نفسي.

ولعل أعظم علاجٍ للكنود أن يتعلم الإنسان استحضار النعمة
قبل زوالها؛ أن يرى أمه وأباه قبل أن يصيرا ذكري، وأن يعرف
قيمة العافية قبل المرض، وأن يحفظ فضل الصديق قبل الفراق،
وأن يستشعر نعمة الوقت قبل أن يتحول العمر إلى صفحاتٍ
مغلقة. ليست الحكمة أن نعرف قيمة الأشياء بعد فقدانها، فذلك
علمٌ يأتي متأخراً، وإنما الحكمة أن نعيش معها بوعيٍ يليق بإمكان
زوالها.

ليس الشاكر من لم تُصبه الأحزان، بل من لم تُفقد الأحزان
ذاكرة الرحمة؛ وليس الشاكر من امتلك كل ما يريد، بل من
رأى فيما أعطي ما يكفي ليحبَّ الله ويثق به؛ وليس الشاكر من

أنكر حاجته، بل من سأل ربّه مفتقراً دون أن يحوّل السؤال إلى اعتراض، وانتظر الفرج دون أن يجعل تأخره اتهاماً للحكمة.

إن قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾ ليس حكماً على لحظة عابرة، بل مرآة مرفوعة أمام كل عمر. كلما ضاقت النفس بما فاتها، وجب أن تقف أمامها؛ وكلما اعتادت نعمة حتى نسيته، وجب أن تتلوها من جديد؛ وكلما ظنت أن الله لم يعطها، وجب أن تنظر في وجودها كله، لا في مطلبها الواحد.

سيأتي يومٌ يتوقف فيه الإنسان عن عدّ ما ينقصه؛ لأن القبور ستبعثر، والصدور ستُحصّل، وسينكشف له أن أعظم نعمة لم تكن مالاً ولا صحةً ولا جاهاً، بل أن يُمنح قلباً يعرف ربّه قبل أن يلقاه. هناك لن يحزن على دنيا لم يملكها، بل على نعمة ملكها ولم يشكرها، ووقتٌ أُعطيه فلم يعمره، وقلبٌ حمله بين جنبيه لكنه تركه أرضاً كنوداً لا تُنبِت من مطر الوحي حياة.

فيا له من سؤالٍ تضعه الآية في أعماقنا: إذا كانت آثار نعمة الله فينا لا تُحصى، فأين آثار شكرنا له؟ وإذا كان فضله يلاحقنا في

كل نفس، فلماذا لا يلاحق ذكره كل خفقة؟ وإذا كانت
العادات قد أعطت الطريق حتى آخر أنفاسها، فبأي شيء
سنجيب ربنا حين يسألنا عما أعطينا من أعمارنا وقلوبنا؟

الفصل السابع

وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ

الإنسان حين يحمل في نفسه الدليل على نفسه

قال الله تعالى:

﴿وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ﴾

لا تكتفي السورة بأن تصف الإنسان بالكنود، بل تضيف حقيقةً أشد إيلاماً: إن الإنسان، في أعماقه، ليس غريباً عن هذا الجحود، ولا جاهلاً به جهلاً كاملاً، وإنما يحمل في نفسه شاهداً عليه. يعرف شيئاً من حقيقة قلبه، ويرى آثار كنوده في سلوكه، ويشعر بالفارق بين ما أنعم الله به عليه وما قدّمه من شكر، وإن حاول أن يفرّ من هذه المعرفة إلى الأعذار.

والأقرب في سياق الآية أن الضمير يعود إلى الإنسان؛ أي إن الإنسان شاهدٌ على كنوده، تشهد عليه نفسه، ويشهد عليه حاله وعمله. وقيل: إن الله تعالى شهيدٌ عليه، وهو معنى حقٌّ في ذاته، تؤكدُه خاتمة السورة: ﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ خَبِيرٌ﴾؛ غير أن

توجيه الضمير إلى الإنسان يجعل الآية أكثر نفاذاً إلى أعماقه:
أنت لا تحتاج دائماً إلى شاهدٍ يأتيك من خارجك، لأن فيك
شاهداً يعرفك، ولأن أفعالك نفسها تروي حقيقتك وإن أنكرها
لسانك.

إن الآية تنقل الإنسان من مقام المتهم الذي يبحث عن دليلٍ
خارجي إلى مقام الشاهد الذي لا يستطيع التخلص من شهادته.
فالكنود ليس وصفاً غامضاً لا يعرف الإنسان موضعه منه؛
يكفيه أن ينظر كيف يتغير قلبه حين يُمنع عنه ما يريد، وكيف
يتعامل مع النعمة بعد أن يألفها، وكيف يتذكر الله عند الشدة
ثم يغفل عنه عند الرخاء، وكيف تكثر مطالبه كلما كثر عطاؤه.
إن حياته اليومية تكتب شهادتها بصمت، ومواقفه الصغيرة تقول
عنه ما قد لا تقوله خطبه الكبيرة.

وقد جعل الله في الإنسان قدرةً على أن يرى نفسه، وأن يراجع
دوافعه، وأن يشعر بالتناقض بين ما ينبغي أن يكونه وما هو كائنٌ
عليه. وهذه القدرة من أعظم ما كرم الله به الإنسان؛ فهو لا

يفعل فقط، بل يستطيع أن ينظر إلى فعله، ولا يرغب فقط، بل يستطيع أن يحاكم رغبته، ولا يخطئ فقط، بل يستطيع أن يشعر بخطئه ويعود عنه. إنه الكائن الذي يمكنه أن يقف خارج لحظته قليلاً، ويجعل من نفسه موضوعاً للمراجعة.

لكن هذه النعمة قد تتحول إلى حجة ثقيلة إذا استخدم الإنسان وعيه لصناعة الأعذار بدل اكتشاف الحقيقة؛ فالعقل الذي يستطيع أن يهديه إلى الصواب يستطيع كذلك أن ينسج له ستاراً كثيفاً يحجب عنه خطأه. قد لا ينكر الفعل، لكنه يغير اسمه؛ يسمي الطمع طموحاً، والجبن حكمةً، والحسد نقداً، والانتقام عدلاً، والتعصب وفاءً، والكبر حفاظاً على الكرامة، والرياء حرصاً على القدوة. وهكذا لا يحو الإنسان شهادته الداخلية، وإنما يعبث بألفاظها كيلا يسمع حكمها.

إن النفس لا تحب أن ترى ذاتها متلبسةً بالنقص، ولذلك تبني حول أخطائها منظومةً من التبريرات. إذا ظلمت قالت: لقد دفعوني إلى ذلك؛ وإذا خانت قالت: لم يقدروني؛ وإذا قصرت

قالت: الظروف لم تساعدني؛ وإذا بحدث النعمة قالت: إنما أطلب بحقي. وقد يكون في الظروف شيء من الحقيقة، لكن المشكلة أن الإنسان يجعلها تفسيراً كاملاً يعفيه من مسؤوليته، مع أن العوامل التي تفسّر الفعل لا تبرره دائماً، والألم الذي يشرح القسوة لا يجعل القسوة فضيلة.

الآية تهدم هذه الحيلة من أصلها: ﴿وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ﴾. قد تنجح في إقناع الناس بالصورة التي صنعتها، وقد تجعلهم يرونك مظلوماً دائماً، محسناً دائماً، صائباً دائماً؛ لكن ثمة موضع في داخلك يعرف الأجزاء التي حذفها من القصة، والكلمات التي غيّرتها، والنوايا التي لم تكشفها. هناك لحظة بينك وبين نفسك يسقط فيها خطاب الدفاع، وتظهر الحقيقة مجردة من الزينة.

ولهذا كان الصمت أحياناً مخيفاً للإنسان؛ ففي الضجيج يستطيع أن يهرب من نفسه، وفي الزحام ينسى أسئلته، وفي الانشغال المتواصل يضع بينه وبين قلبه مسافات طويلة. لكنه حين يخلو، وتسكن الأصوات، تقترب منه شهادته الداخلية.

وربما لهذا يملأ بعض الناس أوقاتهم بكل شيءٍ إلا التأمل؛
يخشون الفراغ لأنهم قد يلتقون فيه بأنفسهم، ويخشون السكون
لأن صوت الضمير لا يُسمع بوضوحٍ إلا حين تخفت الأصوات
الأخرى.

إن الضمير ليس معصوماً، وقد يتأثر بالتربة والبيئة والهوى،
وقد يضعف حتى يستحسن القبيح؛ ولذلك لا يكفي وحده
مصدراً للهداية، بل يحتاج إلى نور الوحي الذي يصحح ميزانه
ويعيد إليه حساسيته. لكن بقاء أثر اللوم في النفس علامةٌ على
أن باب الإصلاح لم يُغلق؛ فالألم الذي يشعر به الإنسان بعد
الذنب ليس عذاباً نفسياً لا معنى له، بل قد يكون نداءً رحمةً
يقول له: ما زلت تعرف الطريق، فلا تُسكت هذا الصوت حتى
يموت.

إن الخطر ليس أن يقع الإنسان في الخطأ فقط؛ فالإنسان
ضعيف، وكل بني آدم خطاء، وإنما الخطر أن يتحول الخطأ إلى
هويةٍ يدافع عنها، وأن يقتل الشاهد في داخله بالتكرار والتبرير.

الذنب الأول قد يهزّه، والثاني يؤلمه أقل، والثالث يعتاده، ثم يأتي وقتٌ يصبح فيه إنكار الخطأ جزءاً من حماية صورته. عندئذٍ لا يعود يبحث عن الحق، بل يبحث عما يثبت أنه محق، ولا يسأل: ماذا فعلت؟ بل يسأل: كيف أشرح ما فعلت بطريقة تبرئني؟

وما بين شهادة النفس في الدنيا وشهادتها في الآخرة علاقةٌ عميقة. ففي الدنيا يستطيع الإنسان أن يقاطع الشاهد، ويشوش صوته، ويؤجل المحاكمة، أما في الآخرة فتسقط القدرة على التلاعب. يقول الله تعالى: ﴿بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ۚ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ﴾؛ فهو يرى، ولو جاء بأستارٍ من الأعذار، ويعرف، ولو أتقن خطاب الإنكار. إن الأعذار قد تؤخر الاعتراف، لكنها لا تغيّر الحقيقة.

وتشهد جوارح الإنسان عليه لأنها كانت موضع أفعاله، لكن حياته تشهد عليه قبل أن تنطق الجوارح. أين يذهب ماله؟ فيم يقضي وقته؟ ما الذي يثير غضبه؟ ما الذي يفرحه؟ من يخشى أن يفقد رضاه؟ ما الذنب الذي يهون عليه، وما الواجب الذي

يُثقل؟ هذه الأسئلة لا تطلب من الإنسان أن يكتب تعريفاً نظرياً
لنفسه، بل تكشفه من خلال اتجاهاته الفعلية. فنحن لسنا فقط
ما نقول إننا نحب، بل ما نقدم له الوقت والتعب والتضحية.
وقد يقول الإنسان: أنا أحب الله، ثم إذا تعارض أمر الله مع
رغبة نفسه قدم الرغبة؛ ويقول: الآخرة غايتي، ثم يكون تخطيطه
كله للدنيا، وخوفه كله عليها، وفرحه كله بها؛ ويقول: المال
وسيلة، ثم تراه يضحى من أجله بصحته وطمأنينته وعلاقاته
وربما بدينه. إن السلوك شاهد لا يجيد المجاملة، والاختيارات
المتكررة تكتب العقيدة العملية التي قد تخالف العقيدة المعلنة.

ومن هنا يظهر الاتصال بين قوله: ﴿وَأَنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ﴾
وبين الآية التالية: ﴿وَأَنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾. فشهادة الإنسان
على كنوده ليست معرفةً نظريةً منعزلة، بل يشهدها في شدة تعلقه
بالمال وما يراه خيراً دنيوياً؛ يعرف أن قلبه يضطرب عند احتمال
الفقد، وأن يده تنقبض عند موضع البذل، وأن حساب الدنيا

يعلو أحياناً على حساب الآخرة. إن حب المال لا يبقى فكرةً خفية، بل يظهر في البخل والقلق والمنافسة والحسد والانشغال. والإنسان قد يعرف علته ثم لا يريد علاجها؛ لأن بعض الأمراض يمنح صاحبها لذةً عاجلة. يعرف أن التعلق بالدنيا يرهقه، لكنه لا يتخلى عن أسباب التعلق؛ ويعرف أن الحسد يأكل قلبه، لكنه يستمتع بتتبع عثرات من يحسده؛ ويعرف أن المبالغة في حب الظهور تستعبده، لكنه لا يطيق أن يمرَّ خيرٌ من دون أن يُنسب إليه. ليست المعرفة وحدها كافيةً للتغيير؛ فقد ترى السلاسل بوضوح وتظل ممسكاً بها لأن جزءاً منك يحبها. ولهذا لا تقول الآية إن الإنسان «عالمٌ» بكنوده فقط، بل ﴿لَشَهِيدٌ﴾؛ والشهادة أبلغ من المعرفة المجردة، لأنها معرفةٌ مقرونةٌ بالحضور والمعاينة. كأن الإنسان حاضرٌ في مسرح أفعاله، لا يستطيع أن يزعم أنه سمع عن نفسه من بعيد؛ كان هناك حين نسي النعمة، وحين بخل، وحين اعترض، وحين أثر العاجل على

الآجل . شهد تفاصيل قصته من داخلها، وعرف ما الذي كان يستطيع فعله ثم تركه، وما الذي لم يكن مضطراً إليه ثم اختاره. إن أشد الأحكام وجعاً هو ذلك الذي يأتي من داخل الإنسان؛ فقد يواجه اتهام العالم كله ويقاوم، لكنه ينهار حين يعرف في قرارة نفسه أن شيئاً من الاتهام حق. وربما كان الغضب المبالغ فيه من النقد دليلاً على أن الكلمة لامست حقيقةً نخشى رؤيتها؛ فالإنسان لا يفعل دائماً لأن الآخر ظلمه، بل قد يفعل لأنه اقترب من موضع يريد إبقائه مستوراً.

غير أن الشهادة على النفس ليست دعوةً إلى احتقارها أو تعذيبها، ولا إلى أن يعيش الإنسان أسير الشعور بالذنب؛ فالقرآن يكشف الداء ليفتح طريق العلاج، لا ليغلق باب الرجاء. ثمة فرق بين محاسبة تقود إلى التوبة، وجلدٍ للذات يقود إلى اليأس؛ الأولى تقول: أخطأتُ، ولذلك سأعود، والثانية تقول: أنا انخطأ نفسي، ولذلك لا جدوى من العودة. الأولى تحمّل الإنسان

مسؤوليته مع إبقاء باب الرحمة مفتوحاً، والثانية تستخدم الاعتراف ليكون ذريعةً للاستسلام.

الله الذي أخبر الإنسان بكنوده هو نفسه الذي دعاه إلى الشكر، والذي كشف ذنبه فتح له باب المغفرة، والذي جعل فيه شاهداً على تقصيره جعل فيه كذلك قدرةً على الندم والتوبة والإصلاح. وليس المطلوب أن يخرج الإنسان من المحاسبة محطماً، بل صادقاً؛ وأن يرى ضعفه كي يستعين، لا كي يقنط؛ وأن يعرف مرضه كي يطلب الشفاء، لا كي يتخذ المرض قدراً نهائياً.

ومن أجمل آثار الصدق مع النفس أن الإنسان يصبح أرحم بالناس؛ فمن عرف كنوده لم يتعالَ على المقصرين، ومن رأى مقدار ستر الله عليه لم يفرح بفضيحة غيره، ومن خبر معركته الداخلية لم يختزل البشر في زلاتهم. إن المحاسبة الصادقة لا تصنع إنساناً قاسياً يرى نفسه مركز الطهر، بل عبداً متواضعاً يعرف أن ثباته فضل، وأنه لولا رحمة الله لربما وقع فيما يعيريه على الآخرين.

لكن الرحمة بالنفس لا تعني تزوير الشهادة لصالحها؛ فبعض الناس يخلط بين قبول الذات وتبرئة الذات، وبين فهم الدوافع وإلغاء المسؤولية. تستطيع أن تفهم جرحك دون أن تجعل منه حجةً لجرح غيرك، وأن ترحم ضعفك دون أن تعقد معه صلحاً دائماً، وأن تعترف بأن طريق الإصلاح طويلٌ دون أن تستخدم طوله ذريعةً ألا تبدأ.

إن المؤمن يقف كل يومٍ أمام محكمةٍ داخليةٍ رحيمة: يعرض عمله على الوحي، ويسأل قلبه عن مقاصده، ويستغفر من مواضع الكنود، ويشكر الله على مواضع التوفيق. لا ينتظر أن تتراكم الشهادات حتى يوم القيامة، بل يبادر إلى قراءة ملفه وهو قادرٌ على تعديله بالتوبة. فالدنيا هي الزمن الوحيد الذي يستطيع فيه الإنسان أن يسمع الشهادة ثم يغيّر ما ستقوله عنه النهاية.

وكم يكون منقذاً أن يسأل المرء نفسه قبل النوم: أين رأيت نعمة الله اليوم؟ كيف قابلتها؟ متى اعترض قلبي؟ متى غلبني حيي لنفسي؟ هل شكرت من أحسن إليّ؟ هل آذيت أحداً ثم صنعت

لنفسى عذراً؟ هل كان عملي لله أم لصورتي في أعين الناس؟ ليس المقصود أن يتحول اليوم إلى سلسلةٍ من الاتهامات، بل أن يبقى القلب حياً، وأن تُنظف المرأة قبل أن تتراكم عليها طبقات الغفلة.

الذين يخافون من رؤية عيوبهم يتركونها تنمو في الظلام، أما الذين يملكون شجاعة الشهادة على أنفسهم فيضعونها تحت نور العلاج. والعيب الذي تعترف به أضعف من العيب الذي تنكره؛ لأن الاعتراف ينزع عنه حماية الوهم، ويجعله قابلاً للمواجهة. ما دام الإنسان يقول: لا مشكلة، فلن يبحث عن حل، وما دام يرى نفسه بريئاً دائماً، فسيظل يكرر ما يفعله وهو يطالب الآخرين بالاعتذار.

لقد توسطت العاديات الجمع، وهنا يتوسط القرآن أعذار الإنسان. ويقول له: لست محتاجاً إلى رحلةٍ بعيدةٍ لتعرف موضع الخلل؛ أنت شاهد. تاريخك شاهد، وطريقة تعاملك مع النعمة شاهد، وغضبك عند المنع شاهد، وغفلتك عند العطاء شاهد.

وقد تستطيع أن تُسكت الشهود من حولك، لكن كيف تُسكت قلباً كان حاضراً في كل مرة؟

ثم إن فوق شهادة الإنسان على نفسه شهادة لا يدخلها النسيان ولا الخداع: شهادة الله الخبير. وإذا كانت النفس قد تخطئ في قراءة ذاتها، فإن علم الله لا يخطئ؛ وإذا كان الإنسان قد ينجح في دفن دوافعه بعيداً عن وعيه، فإن ما دُفن في الصدور سيُحصّل، وإن ما أُخفي تحت طبقات الأعذار سيظهر.

ومن رحمة الله أن يخبرنا بهذه الحقيقة الآن، قبل أن يصبح العلم معاناة لا تنفع معها التوبة؛ أن يقول لنا إن الشاهد في داخلنا، وإن الملف لم يُغلق، وإن بوسعنا أن نعيد ترتيب القلب قبل أن تُبعثر القبور. إن الآية لا تحاصر الإنسان بالحقيقة لتقتله، بل توقفه بها لينجو.

فليست النجاة أن تثبت أنك لم تكن كنوداً قط، فهذا مقام لا يدعيه من عرف ضعف الإنسان، وإنما النجاة أن تشهد على كنودك قبل أن يشهد عليك، وأن تجعل من هذه الشهادة بداية

شكرٍ لا خاتمة يأس، وأن تقول لربك بصدق: عرفتُ تقصيري،
ورأيتُ فضلك، ولم أجد باباً أوسع من رحمتك، فعدت.

الفصل الثامن

وَأَنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ

حين يتحول ما في اليد إلى سيّد في القلب

قال الله تعالى:

﴿وَأَنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾

بعد أن كشفت السورة داء الإنسان فقالت: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾، ثم قررت أنه شاهدٌ على هذا الداء فقالت: ﴿وَأَنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ﴾، تنتقل الآن إلى أحد أعمق أسبابه، وإلى القوة الخفية التي قد تغذي الجحود وتشد الإنسان إلى الأرض:

﴿وَأَنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾.

والمقصود بالخير هنا المال، كما جرى استعماله في لسان القرآن؛ لأن المال في أصله بابٌ واسعٌ من أبواب النفع، ووسيلةٌ لحفظ الحياة، وإقامة المصالح، وصيانة الكرامة، وسد الحاجة، وفعل البر. وليس في تسميته خيراً تركيةً لكل طريقةٍ يُكتسب بها أو

لكل وجهٍ يُنْفَق فيه، وإنما نظرٌ إلى ما يحمله من إمكان النفع، وإلى ما استقر في النفس البشرية من رؤيته خيراً مرغوباً.

فالمال ليس شراً في ذاته، كما أنه ليس خيراً مطلقاً في كل حال؛ وإنما تتحدد قيمته باليد التي تحمله، والقلب الذي يتعلق به، والطريق الذي جاء منه، والوجهة التي يمضي إليها. يكون المال خيراً حين يُطلب من حلال، ويُؤدى حقه، ويُصان به الإنسان عن الذل، ويُغاث به المحتاج، وتُبنى به مصالح الناس. وقد يصير فتنةً حين يُجمع من حرام، أو يُتخذ أداةً للكبر، أو يُمنع منه الحق، أو يستقر في القلب حتى يصبح الإنسان خادماً لما كان ينبغي أن يكون خادماً له.

والآية لا تقول إن الإنسان يحب الخير فحسب، فحب المال جزءٌ من الفطرة التي تقوم بها الحياة، وتُحفظ بها المصالح؛ وإنما تقول: ﴿لَشَدِيدٌ﴾. هنا يقع موضع الخطر: في شدة الحب، وغلبته، واستيلائه على القلب حتى يزيح القيم من مواقعها، ويبعد ترتيب الأولويات على أساس الربح والخسارة وحدهما. المشكلة ليست في

أن تملك المال، بل في أن يملك المال جهة قلبك؛ وليست في أن تضعه في خزانتك، بل في أن يضعك هو في خزانته، مغلقاً عليك أبواب الرحمة والحرية والطمأنينة.

وقد يحتمل التعبير أن الإنسان شديد الحب للمال، ويحتمل أنه شديدٌ بخيلٌ بسبب حبه له، والمعنيان يلتقيان؛ لأن الحب إذا تجاوز حدّه تحول من عاطفة باطنة إلى سلوكٍ ظاهر. ما يستقر في القلب يمدّ جذوره إلى اليد: فإذا اشتد التعلق بالمال اشتد الإمساك، وإذا عظم الخوف من نقصه صعب البذل، وإذا أصبح معيار الأمان كله ضاقت النفس عند كل نفقةٍ لا ترى عائدها العاجل.

والحب في ذاته قوةٌ موجّهة؛ فما يحبه الإنسان يرى العالم من خلاله، ويعيد تنظيم وقته تبعاً له، ويحتمل المشقة في سبيله. ومن أراد أن يعرف حقيقة ما يحب، فلا يكتفِ بما يقوله لسانه، بل لينظر إلى الشيء الذي يمنحه أجمل ساعات يومه، والذي يشتد خوفه عند احتمال فقده، والذي يضحي من أجله بما عداه.

فالمرء قد يعلن أنه يحب الله والحق والآخرة، لكن خريطة وقته وقلقه وقراراته قد تكشف أن مركز الحب في مكانٍ آخر.

إن الحب الشديد للمال لا يظهر فقط في كثرة جمعه، بل قد يظهر في كثرة التفكير فيه، والخوف المستمر عليه، ومقارنة النفس بالآخرين من خلاله، وربط القيمة الإنسانية بمقداره. ورب فقيرٍ مستعبدٍ للمال أكثر من غنيٍّ؛ لأنه يعيش بقلبه داخل ما يمتنى، ويقيس كرامته بما لا يملك، ويمتلى حسرةً على حظوظ الناس. ورب غنيٍّ حرٍّ من عبودية المال؛ جعله في يده، ولم يسمح له أن يحتل قلبه، فإذا دعاه واجبٌ بذل، وإذا أصابه نقصٌ صبر، وإذا اتسع رزقه تواضع.

فالعبرة ليست بحجم الرصيد، بل بموقعه من الروح. قد يملك الإنسان القليل ويكون القليل مالاً له، وقد يملك الكثير ولا يملك الكثير منه شيئاً. الحرية من المال لا تعني تركه كله، بل أن تستطيع استخدامه دون أن يستخدمك، وأن تفقد شيئاً منه دون

أن تفقد نفسك، وأن تنفقه في الحق دون أن تشعر أنك تمتزج
قطعةً من وجودك.

إن المال يعد الإنسان بشيءٍ من القدرة؛ به يشتري، ويحرك،
ويختار، ويحصّن نفسه من بعض الحاجة. ومن هنا تنشأ جاذبيته
العميقة: فالإنسان الضعيف يبحث عن شيءٍ يمنحه شعوراً بالقوة
والسيطرة، والإنسان الخائف يبحث عن جدارٍ يحميه من تقلّبات
المستقبل، والمال يبدو قادراً على أداء هاتين الوظيفتين. لكنه لا
يلبث أن يكشف حدوده؛ يشتري الدواء ولا يشتري العافية،
ويهيئ أسباب الراحة ولا يضمن الطمأنينة، ويجمع حول الإنسان
أناساً ولا يضمن المحبة، ويفتح أبواباً في الأرض لكنه لا يفتح
باب القبول في السماء.

المال يملك قدرةً كبيرةً داخل دائرة الأسباب، لكنه يصبح
صنماً حين يُمنح قدرةً تتجاوز حدوده؛ حين يظن الإنسان أن أمانه
كله فيه، وقيّمته كلها منه، ومستقبله كله تحت حراسته. عندئذٍ

لا يعود المال نعمةً فحسب، بل يتحول إلى إلهٍ خفيٍّ لا يسجد له الجسد، لكن تسجد له القرارات والمخاوف والأخلاق.

وقد يظن الإنسان أنه يجمع المال ليأمن، فإذا شدة حبه له تزيده خوفاً؛ كلما اتسعت ممتلكاته اتسعت الأشياء التي يخشى ضياعها، وكلما علا بناؤه كثر قلقه من السقوط، وكلما ذاق لذة الزيادة صار النقص في عينه كارثة. يبدأ المال وسيلةً للخلاص من القلق، ثم يصبح مصدراً جديداً للقلق؛ لأن القلب إذا علق أمانه بشيءٍ متغيرٍ عاش متغيراً معه.

إن الفقير قد يخاف ألا يجد، والغني قد يخاف أن يفقد، وبين الخوفين يعيش الإنسان أسير غدٍ لا يملكه. ولا يحرره من ذلك أن يترك الأخذ بالأسباب، بل أن يعمل ويجمع بحكمةٍ بينما يعرف أن الرزق من الله، وأن الأسباب ليست أرباباً، وأن ما كُتب له سيأتيه، وأن ما لم يكتب لن تصنعه شدة الحرص.

وليس التوكل أن يترك الإنسان عمله وينتظر المال من السماء، بل أن تسعى جوارحه ولا يعبد قلبه سعيه؛ أن يخطط للمستقبل

دون أن يتوهم أنه يملكه، وأن يدخر دون أن يجعل الادخار عقيدة الأمان الوحيدة، وأن يعرف أن يده تمسك السبب، لكن الأمر كله في يد الله. فإذا جاءه الرزق شكر، وإذا تأخر صبر، وإذا نقص لم ينهدم إيمانه، وإذا اتسع لم يتضخم كبره.

وتكشف الآية أن شدة حب المال قد تكون منبعاً للكنود؛ لأن من أحب العطاء أكثر من حبه للمعطي، لم يشعر برحمة الله إلا حين توافق الرحمة صورة المال في ذهنه. فإذا رزقه قال: أكرمني ربي، وإذا ضيق عليه قال: أهانن. يقرأ علاقته بالله من خلال مقدار ما في يده، لا من خلال مقدار ما في قلبه من هداية؛ وقد يكون المنع في حقه رحمةً، والعطاء استدراجاً أو امتحاناً، لكنه لا يملك ميزاناً وراء ميزان المال.

إن من أخطر آثار هذا الحب أن يعيد تعريف الإنسان للخير كله؛ فما زاد رصيده خير، ولو نقص من دينه، وما حقق مصلحته خير، ولو سحق حقوق غيره، وما رفع مكاتته خير، ولو

أسقط أخلاقه. عندئذٍ لا يعود المال شيئاً يحبه، بل يصبح معياراً يحدد به الصواب والخطأ، والكرامة والمهانة، والنجاح والفشل. قد يرى صاحب المال ناجحاً ولو كان فارغ الروح، ويرى الفقير فاشلاً ولو كان غني القلب، ويحسب الوظيفة بقدر راتبها لا بقدر رسالتها، ويزن الإنسان بثيابه ومركبته وبيته لا بعقله وأمانته. وهكذا ينتقل المال من الخزانة إلى منظومة القيم، فيعيد تشكيل المجتمع على صورته: يُرفع من يملك، ولو لم يستحق؛ ويُهَمَّش من لا يملك، ولو امتلأ فضيلةً ومعرفة.

وحين يستقر هذا الميزان في المجتمع يصبح الفقر تهمةً لا حالة، والثراء شهادةً استحقاقٍ أخلاقي، وتتحول العلاقات إلى صفقاتٍ خفية: يُقترَب من الإنسان لما يُرجى منه، ويُبْتَعد عنه حين ينتهي نفعه، ويُمدَح ما دام قادراً على العطاء، فإذا ضعفت يده انكشف أن كثيراً ممن حوله لم يكونوا يحبونه بل يحبون ما يصل إليهم من خلاله.

إن المال قادرٌ على اختبار صدق المودة؛ فالذي يحبك لذاتك يبقى حين تتغير حاله، والذي يحب منفعتك يرحل حين تنقطع. وربما كانت بعض الخسارات المالية كشفًا رحيماً لحقائق العلاقات؛ تذهب الأشياء فتظهر الوجوه، ويقل ما في اليد فيعرف ما في القلوب.

والقرآن لا يريد إقامة خصومة بين الإنسان والرزق، بل يريد تحرير العلاقة بينهما. لا يقول للإنسان: لا تحب الخير، وإنما يحذره من شدة تجعل الحب سيداً لا خادماً. فالله تعالى هو الذي أودع الميل إلى المال، وهو الذي شرع التجارة والسعي والميراث، وأمر بإصلاح المال وعدم تبذيره؛ لكنه في الوقت نفسه شرع الزكاة والصدقة والإنفاق، حتى تبقى اليد مفتوحة، وحتى لا يتحول التملك إلى إغلاقٍ كاملٍ للقلب.

والزكاة في جوهرها ليست نقل جزءٍ من المال فحسب، بل تحرير جزءٍ من الإنسان؛ إنها تقطع شيئاً من سطوة التملك، وتذكر الغني بأن المال الذي بين يديه ليس خالصاً له، وأن في رزقه حقاً

معلوماً لغيره، وأن النعمة لا تكتمل إلا حين تتحول من سياجٍ حول الذات إلى نهرٍ يتجاوزها. كل نفقةٍ صادقةٍ تدريبٌ للقلب على أن يقول للمال: أنت في يدي ولست إلهي.

والصدقة سميت صدقةً لأنها تصدّق الدعوى؛ فالإنسان قد يقول إنه يثق بالله، فإذا جاء موضع البذل ظهر مقدار الثقة. قد يقول إن الآخرة خيرٌ وأبقى، فإذا طُلب منه أن ينقل شيئاً من الفاني إلى الباقي انقبضت يده. ومن هنا يصبح الإنفاق شهادةً عمليةً على ترتيب المحبوبات: ماذا تقدم حين يتعارض المال مع الحق؟ هل تؤثر الشيء المرئي الذي في يدك أم الوعد الغيبي الذي عند ربك؟

إن البذل لا يقاس بحجم المال وحده، بل بموقعه من القلب؛ فقد يعطي الغني كثيراً ولا يشعر أنه أعطى، ويعطي الفقير قليلاً لكنه ينتزع من حاجته شيئاً عزيزاً. الله لا ينظر إلى الرقم منفصلاً عن النية والقدرة والأثر؛ فالدرهم الذي يمر على القلب

قبل أن يخرج من اليد قد يكون أثقل في الميزان من مالٍ كثيرٍ
خرج طلباً للذكر.

وقد يتخذ الإنسان من العطاء نفسه طريقاً إلى حب المال
والذات؛ ينفق ليرى، ويمنح ليملك أعناق الناس، ويساعد ليصنع
لنفسه صورةً أخلاقيةً جميلة. عندئذٍ يكون المال قد خرج من
يده، لكنه لم يخرج من قلبه؛ فقد استبدل به نوعاً آخر من الربح:
السمعة، والنفوذ، والشعور بالتفوق. وليس الزهد أن تترك المال
وأنت شديد التعلق بما سيقوله الناس عن تركك، وإنما أن تتحرر
من عبادة العوض، سواءً كان عوضاً مادياً أم معنوياً.

إن الخير الحقيقي ليس المال وحده، بل ما يصنعه المال في
طريق المصير. قد يبدو المال خيراً لأنه يملأ اليد، لكنه إذا أفرغ
القلب من الرحمة صار شراً على صاحبه؛ وقد يبدو بذله نقصاً،
لكنه إذا عمّر الآخرة كان هو الزيادة الحقيقية. فالإنسان يرى
الشيء حين يخرج من ملكه كأنه ذهب، والقرآن يعلمه أن ما

قدّمه الله هو وحده الذي بقي له، أما ما أمسكه فسوف يتركه أو يتركه المال.

وهنا نتصل الآية بما بعدها اتصالاً مزلزلاً: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ﴾. إن الإنسان شديد الحب لما يجمعه فوق الأرض، لكنه سيُخرج يوماً من تحت الأرض بلا شيء مما جمع؛ دفن كنوزه في الخزائن، ثم دُفن جسده في التراب، وبقي المال يتنقل بين الأيدي، بينما ذهب هو إلى لقاء العمل الذي صنعه بالمال. ما أعجب الإنسان: يستنفد عمره ليجمع ما سيتركه، ويؤجل ما سيصحبه إلى عالم القبور. يسهر على حساباته المالية، ولا يراجع حساب قلبه؛ يخشى نقص الرصيد، ولا يخشى فراغ صحيفة العمل؛ يؤمن البيت من السرقة، ولا يؤمن الروح من الجحود؛ يعدّ أمواله مراراً، ولا يعدّ المرات التي أنفق فيها عمره بعيداً عن الله. وليس في التخطيط للدنيا خطأ، فالإنسان مأمورٌ بإصلاح معاشه وتحمل مسؤولياته، لكن الخلل أن يصبح ما سيتركه أكبر همّه، وما سيصحبه أقل شأنه. الحكمة أن تعطي الدنيا قدرها

بوصفها طريقاً، لا قدر الآخرة بوصفها قراراً؛ وأن تجمع من المال ما يقيم حياتك، لكن تجمع من المعنى ما يقيمك حين ينقطع المال عنك.

إن المال لا يدخل القبر، لكن أثره يدخل؛ يدخل في صورة حقٍّ أدي أو مُنع، وجائعٍ أُطعم أو تُرك، ويَتيمٍ رُحم أو قُهر، وعلمٍ نُشر أو جُعل سلعةً للغرور، وأُسرةٍ كُفيت بالحلال أو أُطعمت من حرام. تختفي العملة وتبقى الأخلاق التي مرّت من خلالها، ويسقط الرقم وتبقى الشهادة: كيف جاء المال؟ وكيف خرج؟ وماذا صنع في القلب؟

والعلاج القرآني لشدة حب المال ليس إفقار الإنسان، بل إغناء روحه بمعنى أكبر؛ لأن القلب لا يترك محبوباً مسيطراً إلا إذا عرف محبوباً أعلى. ما دام المال هو أعظم ما يتصوره الإنسان من الخير، فسيظل شديد التعلق به؛ فإذا عرف الله، وأدرك الآخرة، وذاق طمأنينة القرب، عاد المال إلى حجمه الطبيعي.

ليس التحرر أن يصبح المال بلا قيمة، بل أن توجد في القلب قيمة لا يستطيع المال شراءها ولا منافستها.

وحين يحب الإنسان الله حقاً، لا يكره ما رزقه الله، وإنما يحسن وضعه؛ يأخذه شاكراً، وينفقه مسؤولاً، ويفقده صابراً، ويرفض أن يبيعه دينه، ويعلم أن الفقر إلى الله هو الحقيقة التي لا يزيلها الغنى عن الناس. قد تمتلئ يداه، لكنه يبقى عبداً مفتقراً؛ وقد تخلو يداه، لكنه لا يرى نفسه خارج الرحمة.

إن قوله: ﴿وَأَنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ يضع الإصبع على موضع شديد الحساسية في النفس؛ فالإنسان لا يحب المال فقط، بل يحب ما يعده به المال: الأمان، والاستقلال، والقبول، والقدرة، والظهور. ولذلك لا يكفي أن يعالج السطح؛ عليه أن يسأل: ماذا أطلب من المال في الحقيقة؟ هل أريد به كفاية الحاجة، أم أريد أن يحميني من شعوري الداخلي بالضعف؟ هل أجمعه لأقيم مسؤولياتي، أم لأثبت للناس أنني أساوي شيئاً؟ هل أخاف الفقر، أم أخاف أن تسقط الصورة التي بنيتها لنفسي؟

وقد يكون أشد الفقراء حاجةً من امتلأت خزائنه وفرغ قلبه من الكفاية؛ لأنه كلما حصل على شيء انتقل جوعه إلى شيء آخر. الطمع لا يملك نقطة وصول؛ إنه طريقٌ يتسع كلما مشى فيه صاحبه، ويَعِدُّ بالشبع عند المنعطف القادم، ثم ينقل الوعد إلى منعطفٍ أبعد. وحده القانع يستطيع أن يقول: يكفي؛ لا لأنه لا يطلب الزيادة، بل لأنه لا يجعل سعادته معلقةً بما لم يصل إليه. والقناعة ليست موت الطموح، بل تحرير الطموح من الجشع؛ أن تعمل لتزيد خيراً لا لتسد فراغاً لا يُسد، وأن تنجح دون أن تجعل النجاح ديناً جديداً، وأن تتقدم دون أن تدوس أحداً، وأن تفرح بما يأتيك دون أن تتحول حياة الآخرين إلى مرآة لنقصك. القانع يسعى وقلبه غني، والطامع يسعى وقلبه جائع؛ وقد يصل الاثنان إلى المال، لكن أحدهما يستخدمه والآخر يلهيه المال.

السورة لا تطلب من الإنسان أن يكذب على نفسه فيدعي أنه لا يحب الخير؛ فقد قررت أنه شديد الحب له، وجعلت هذا

الكشف بدايةً للمواجهة. إن طريق التزكية لا يبدأ بإنكار
الرغبات، بل بمعرفتها وضبطها وترتيبها. فالنفس التي تُنكر حبها
للهال قد تكون أضعف أمامه من النفس التي تعرف هذا الحب،
وتراقبه، وتضع له حدوداً، وتدرّب نفسها على البذل.

ثم تأتي الآيات التالية لتفتح نافذة القبر فوق خزان الدنيا:
﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ﴾. إنها لا تناقش الإنسان في
مقدار المال، بل تنقله إلى اللحظة التي يفقد فيها المال سلطانه كله.
هناك لا يبقى غنيٌّ بما ملك، ولا فقيرٌ بما فقد؛ تُبعثر الأجساد من
الأرض، وتُحصّل الأسرار من الصدور، ويقف الجميع أمام
الخير.

عندئذٍ سيعرف الإنسان أن الخير لم يكن ما أحبه حباً شديداً،
بل ما أحسن استخدامه؛ وأن الغنى لم يكن ما خزنه، بل ما
قدّمه؛ وأن الخسارة لم تكن درهماً خرج من يده في سبيل الله،
بل قلباً خرج من الدنيا أسيراً لما تركه وراءه.

فلا تجعل المال عدوك، ولا تجعله ربك؛ اجعله عبداً للحق في
يدك. خذه من بابه، وضعه في موضعه، واشكر الله عليه، ولا
تسمح لبريقه أن يحجب عنك لمعان الحقيقة: كل ما في يدك
مؤقت، وكل ما في قلبك سيُحصّل، وكل ما أُحِبَّتَهُ سيُختبر،
ولن يبقى لك من «الخير» إلا ما تحوّل منه إلى خيرٍ حقيقيٍّ تلقى
الله به.

الفصل التاسع

أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ

حين تنفتح الأرض ويخرج الإنسان من آخر مخابئه

قال الله تعالى:

﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ﴾

بعد أن كشفت السورة كنود الإنسان، وأقامت عليه شهادته من داخل نفسه، ثم أظهرت شدة تعلقه بالمال، لا تدخل معه في جدلٍ طويل، ولا تلاحقه بتفاصيل الحياة التي غرق فيها، وإنما تنقله فجأةً إلى القبر، إلى النقطة التي تسقط عندها الأوهام التي غذّت كنوده، وينتهي سلطان الأشياء التي أحبها، ويتوقف عدوه الطويل خلف الخير العاجل.

يأتي الاستفهام: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ﴾، لا ليسأل عن معلومةٍ غائبة، بل ليوقظ علماً غائب الأثر. فالإنسان يعرف أنه سيموت، ويسمع عن البعث، ويرى القبور، ويشيع الراحلين، ويمر كل يومٍ بأخبار

الموت؛ لكن معرفته قد تبقى باردةً عند أطراف العقل، لا تنزل إلى مركز القرار، ولا تغير ترتيب الحب والخوف والعمل.

وما أكثر الأشياء التي يعلمها الإنسان ولا يعيش بمقتضاها! يعلم أن العمر قصير ثم يبدده، ويعلم أن المال زائل ثم يخاصم من أجله، ويعلم أن الظلم سيعود على صاحبه ثم يظلم، ويعلم أن القبر قريب ثم يبني حياته كلها كأنه استثناءً من الموت. ليست أزمته دائماً في نقص المعرفة، بل في انفصال المعرفة عن الوعي، وانفصال الوعي عن الإرادة، وانفصال الإرادة عن العمل.

ثمة معرفةٌ تسكن اللسان، ومعرفةٌ تسكن القلب؛ الأولى تقول: كل نفسٍ ذائقة الموت، والثانية تجعل صاحبها يعيد النظر في يومه كله. الأولى تعرف أن القبر نهاية الجسد في الدنيا، والثانية تدرك أن كل قرارٍ هو خطوةٌ نحو ما بعد القبر. الأولى تستطيع الحديث عن الآخرة طويلاً، والثانية تجعل الآخرة حاضرةً حين يأتي المال الحرام، وحين تشتد الخصومة، وحين يخلو الإنسان بالذنب، وحين يدعى إلى عملٍ لا يراه الناس.

إن قوله: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ﴾ يواجه الإنسان بالفجوة بين ما يقرره عقله وما تمارسه حياته؛ فهو لا يعيش غالباً كما يعيش من يعلم أنه سيُبعث. ولو استقرت حقيقة البعث في القلب استقراراً كاملاً لتغيّر معنى الرج والخسارة، ولصار كثيرٌ مما نلهث خلفه صغيراً، وكثيرٌ مما نتأقل عنه عظيماً. ليس المطلوب أن يترك الإنسان الدنيا، بل أن يراها من نافذة النهاية؛ فيعرف قدرها، ويضعها في موضعها، ولا يسمح للهمر أن يسرق منه الغاية.

ثم تأتي كلمةٌ قويةٌ مزلزلة:

﴿بُعْثُ﴾.

ليست الصورة أن تُفتح القبور في هدوءٍ فحسب، بل أن تُقلب ويُستخرج ما فيها ويُشار باطنها، فلا يبقى المستور مستوراً، ولا يظل الساكن في موضعه. البعثرة تحمل معنى التفريق والقلب والإخراج؛ مشهدٌ تتقلب فيه الأرض عن ودائعها البشرية، وتُخرج الأجساد التي احتوتها طويلاً، ويعود الذين صاروا تراباً إلى الوقوف للحساب.

في أول السورة كانت الخليل تُشير غبار الأرض بحوافرها:
﴿فَأَثَرُنَ بِهِ نَقْعًا﴾ ، وفي آخرها تُبعثر الأرض نفسها ما استقر في
أعماقها. هناك كانت حركة الأحياء فوق التراب، وهنا حركة
الموتى خارج التراب؛ هناك كان الإنسان يراقب الغبار يرتفع من
تحت أقدام العاديات، وهنا يكون هو نفسه مما تخرجه الأرض.
لقد ظن طويلًا أنه يمشي عليها ويسيطر على مساحاتها، ثم حملته في
قبره، ثم جاء اليوم الذي تدفعه فيه إلى خارجها بأمر الله.

ما أضيق المسافة بين أن يثير الإنسان تراب الأرض وهو يمشي
عليها، وأن يُهال التراب فوق جسده! وما أضعف الكائن الذي
يبني ويجمع ويخاصم ويستطيل، ثم تكفي حفرة ضيقة لتضم
جسده كله! كان يريد من الدنيا مساحةً أوسع، وبيتًا أكبر،
وأرضًا أكثر، ثم انتهى إلى موضع لا يزيد على قدره، وسقطت
من حوله الألقاب والممتلكات، ولم تدخل معه إلا حقيقة عمله.
القبر أعظم مصحح لمقاييس الحياة؛ عند بابه تتشابه الأجساد
التي فرقها الملابس والمنازل والمكانة، ويسقط الفرق بين من كان

يمشي تحفّ به الموابك ومن كان يمرّ فلا يلتفت إليه أحد. لا تعرف الأرض تحتها صاحب الجاه من الفقير في هيئة الجسد، وإنما تتميز المنازل بما حملته الأرواح من إيمانٍ وعمل. لقد كانت المقابر دائماً أكثر الأماكن صدقاً في هدم أوهام الطبقات؛ كل اسمٍ ينتهي إلى شاهد، وكل جسدٍ يعود إلى أصله، ولا يبقى للإنسان إلا ما لا تستطيع العين أن تقرأه على ظاهر القبر.

غير أن القبر في الرؤية القرآنية ليس خاتمة القصة، بل مرحلةٌ يعقبها البعث. ولو كان الموت فناً كاملاً لانتهد مظالم كثيرةٌ بلا عدل، وضاعت توضيحات كثيرةٌ بلا جزاء، واستوى في المصير من عاش للحق ومن عاش لا فتراس الناس. لكن القبور ستُبعث؛ سيعود المظلوم والظالم، والمستكبر والمستضعف، ومن مات وفي قلبه كلمةٌ لم يستطع قولها، ومن مات وقد أخفى جريمةً لم يعرف بها أحد. يعود الجميع إلى يومٍ لا تضيع فيه ذرة.

إن البعث ضرورة العدل الكامل؛ ففي الدنيا قد يموت القاتل قبل أن يُقتص منه، وقد ينكسر المظلوم ولا يرى إنصافه، وقد

يُدفن المحسن مجهولاً، ويعلو المسيء في أعين الناس. ولو كانت الدنيا هي الصفحة الأخيرة لبقيت أسئلة الأخلاق مفتوحةً على العتب، لكن الآخرة تغلق القصة على حكم الله العدل، وتضع كل موقفٍ في موضعه الحقيقي.

البعث ليس مجرد إعادة للأجساد، بل إعادةٌ للحقيقة إلى مركز الوجود؛ في الدنيا يستطيع الإنسان أن يعيش داخل صورةٍ مصنوعة، وأن يخفي بعض تاريخه، وأن يفرض على الناس روايته بقوته أو ماله، أما حين تُبعثر القبور فلا يملك أحدٌ أدوات صناعة الصورة. يخرج الإنسان بلا جمهورٍ يدافع عنه، ولا سلطةٍ تسكت خصومه، ولا مالٍ يشتري به ولاءً، ولا خطابٍ يؤجل به الحكم. ولفظ ﴿مَا فِي الْقُبُورِ﴾ يجعل المشهد شاملاً لما أودعته القبور؛ كأن الموت قد رد الأجساد إلى أشياء ساكنةٍ في نظر الدنيا، ثم يأتي أمر الله فتتحول السكينة إلى حركة، والفناء الظاهر إلى حياة، والغياب إلى حضورٍ لا يستطيع أحدٌ الفرار منه. الذين غابوا عن الذاكرة البشرية لم يغيبوا عن علم الله، والقبور التي مُحيت

معالمها لم تُحَ محتوياتها من إحاطته، والذرات التي تفرقت في الأرض لا يعجزه جمعها.

قد يظن الإنسان أن الذين ماتوا صاروا ماضيًا، لكن القرآن يراهم مستقبلًا أيضًا؛ سيخرجون، ويلتقون، ويقفون. كل المقابر التي تمتد في تاريخ الأرض ليست صفحاتٍ أُغلقت إلى غير رجعة، بل جموعٌ تنتظر النداء. من أول إنسانٍ واره التراب إلى آخر جسدٍ يُدفن قبل قيام الساعة، ستنشق الأرض عن الجميع، لا يسقط اسمٌ من علم الله، ولا تضيع ذرةٌ من خلقه.

إن تصور هذا المشهد يبدل علاقة المؤمن بالموت؛ فلا يعود الموت عدماً مظلمًا يبتلع المعنى، بل باباً بين حياتين. لا يزول وجع الفقد، فالفراق مؤلم، والرحمة البشرية تبكي من تحب، لكن الحزن لا يبقى بلا أفق؛ ثمة لقاء، وثمة قيام، وثمة ربٌّ يحفظ الأرواح والأعمال والعهود. الذين غابوا عن أبصارنا لم يخرجوا من ملك الله، والذي حفظهم وهم أحياء لا يعجزه أن يعيدهم بعد أن صاروا تراباً.

ومع ذلك، لا ينبغي أن تتحول عقيدة البعث إلى فكرة تؤجل مسؤولية الإنسان عن الحياة؛ فالذي يؤمن بأنه سيخرج من القبر ينبغي أن يكون أكثر عنايةً بما يزرعه قبل القبر. الآخرة لا تُلغى الدنيا، بل تمنح كل عملٍ دنيويٍّ امتداداً أبدياً. اللقمة الحلال، والكلمة الطيبة، والعدل الصغير الذي لا ينتبه إليه الناس، والدمعة التي كففتها عن وجه مظلوم، كلها تخرج من حدود اللحظة وتدخل في بناء المصير.

وكذلك الشر لا ينتهي بانتهاء لحظته؛ كلمةٌ أفسدت قلباً، أو ظلمٌ امتد أثره بعد صاحبه، أو فكرةٌ مضللةٌ تركها في الناس، قد تستمر شهادتها بعد أن يُغلق عليه قبره. يموت الفاعل، لكن بعض أفعاله تظل حيةً تعمل في العالم، حتى إذا بُعِثَ خرج ومعه ما امتد من آثارها. ما أخطر أن يترك الإنسان وراءه شراً لا يتوقف بموته، وما أجمل أن يترك خيراً يواصل العمل وهو تحت التراب!

وسؤال ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ﴾ يضع العلم بالبعث في مواجهة شدة حب المال. كأن السورة تقول: كيف يبلغ حبه لما سيترك كل هذه

الشدة، وهو يعلم أنه سيخرج يوماً من قبره خالي اليدين؟ كيف يمنع الحق ليكثر ما عنده، ثم يذهب إلى موضع لا يصل إليه شيء مما منع إلا وزره؟ كيف يبيع ضميره ليشتري مزيداً من الدنيا، وهو يعلم أن الصفقة ستنتهي عند حفرة، وأن الذي باعه باقٍ في صحيفته، والذي اشتراه باقٍ وراءه؟

إن الإنسان لا يجهل الموت من حيث المعلومة، لكنه يدفعه إلى هامش وعيه؛ يتعامل معه كأنه حادثٌ يخص الآخرين. كلما مات شخصٌ قال: مات فلان، ولا يقول قلبه بصدق: اقترب دوري. ينظر إلى الجنازة باعتبارها قصة الراحل، لا رسالة الباقي. ثم يعود من المقبرة إلى صراعاته القديمة، كأن التراب لم يقل له شيئاً، وكأن الحفرة التي أغلقها يديه لا تنتظر جسداً آخر.

وربما كان من الكنود أن يذكر الله الإنسان بالنهاية مراراً ثم يصرّ على الغفلة؛ يرسل إليه الشيب رسولاً، وضعف الجسد رسولاً، وموت الأقران رسولاً، وتقلب الأحوال رسولاً، لكنه لا يقرأ الرسائل إلا بوصفها حوادث منفصلة. يرى الأيام تأخذ

من قوته فلا يعرف أنها تقرّبه، ويرى مَنْ كان معه يرحل فلا يدرك أن الصف يتحرك وأن دوره آتٍ.

وليس استحضار القبر دعوةً إلى كراهية الحياة، بل إلى إنقاذها من التفاهة؛ فحين يعرف الإنسان أن وقته محدود يصبح أكثر حرصاً على ألاَّ يبدده في الضغائن الصغيرة، وأكثر شجاعةً في قول الحق، وأكثر عنايةً بمن يجب. الموت لا يسلب الحياة قيمتها، بل يكشف قيمتها؛ لأن اللحظة لو كانت لا تنتهي لفقدت استعجالها الأخلاقي، أما وهي قابلةٌ لأن تكون الأخيرة فإن للكلمة وزناً، وللعناق معنى، وللتوبة ضرورة.

من يتذكر القبر بحق لا يهجر العالم، بل يصير أصدق حضوراً فيه؛ يعمل لأنه سيُسأل، ويعمر لأنه مستخلف، ويجب لأن الفراق ممكن، ويسامح لأن العمر أقصر من أن يُستهلك في الأحقاد، ويعتذر لأن موعد الرحيل قد يسبق موعد المصالحة. إن ذكر الموت الذي لا يصنع حياةً أنقى لم يبلغ بعد غايته التربوية.

وقد اختارت الآية لفظ القبور بصيغة الجمع؛ لأنَّ المشهد ليس موتاً فردياً منعزلاً، بل بعث البشرية كلها. الإنسان الذي عاش يتوهم أن قصته مركز الكون سيخرج بين جموع لا يحصيها إلا الله، وسيدرك أن أناه التي ملأت عليه الدنيا ليست سوى نفسٍ واحدةٍ من نفوس الخلائق، لا يرفعها نسب ولا مال، وإنما يرفعها ما جاءت به من تقوى.

القبور تجمع في باطنها عصوراً كاملة؛ ملوَّغاً كانوا يظنون أن الأرض ملكهم، وفقراء لم يملكوها منها إلا موضع دفنهم، علماء ومجهولين، أطفالاً وشيوخاً، ظالمين وأولياء. وعندما تُبعثر لا يخرج الناس بحسب ترتيبهم في سجلات الدنيا، بل إلى ميزانٍ جديدٍ يسقط فيه كل امتيازٍ لم يأذن الله له أن يبقى.

وما أشدَّ الفرق بين بعثرة القبور وبعثرة ما في الصدور؛ فالأولى تخرج الأجساد من مواضعها، والثانية تكشف المعاني من مخابئها. قد يبدو بعث الجسد هو الحدث الأعظم، لكن السورة تمضي إلى ما هو أروع للنفس: أن يُحصَّل ما في صدرها. فالإنسان ربما

لا يخاف أن يرى جسده خارج قبره بقدر ما ينبغي أن يخاف أن تُرى نيته خارج سترها.

في الدنيا يختار الإنسان ثيابه التي يظهر بها، وكلماته التي يقدم بها نفسه، والجزء الذي يرويه من قصته، أما في الآخرة فلا يملك طريقة العرض. تُبعثر الأرض جسده، ويُحصَل الله صدره؛ فلا ظاهرٌ يستطيع أن يخفي الباطن، ولا ادعاءٌ يملك أن يصمد أمام الخبرة الإلهية.

والبعثة تقابل ميل الإنسان إلى الجمع؛ كان يجمع المال ويرتبه ويحفظه، ثم جاءت قوة إلهية تبعثر ما في القبور، وتكشف أن النظام الذي صنعه لنفسه لم يكن النظام الأخير. جمع أشياءه كي يمنعها من التفرق، لكن جسده نفسه تفرق في التراب، ثم جمعه الله للعرض. كان يخاف بعثرة أمواله، ولم يفكر في بعثرة قبره.

إن كل ما يبنيه الإنسان على وهم الدوام معرضٌ للانحيار؛ ليس لأن البناء والعمل باطلان، بل لأنهما لا يصلحان أن يكونا المعنى النهائي. ابن ما استطعت، ولكن اعلم أنك راحل؛ واجمع

ما تحتاج، ولكن اعلم أنك تارك؛ واكتب اسمك إن كان في كتابته خير، ولكن اعلم أن الأسماء في الأرض قد تُمحي، وأن الاسم الذي ينبغي أن تحرص عليه هو اسمٌ مكتوبٌ في سجل القبول عند الله.

قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ﴾ سؤالٌ يريد أن يحوّل العلم من معلومةٍ مؤقتةٍ إلى بصيرةٍ حاضرة: أفلا يعلم الآن، وهو يختار؟ أفلا يعلم وهو يخل؟ أفلا يعلم وهو يجحد؟ أفلا يعلم وهو يظلم في الخفاء؟ أفلا يعلم أن ما يراه الناس نهايةً عند القبر ليس إلا بداية انكشافٍ أوسع؟

ليس السؤال عمّا سيعرفه الإنسان حين تُبعثر القبور، فحينئذٍ سيعرف الجميع، وإنما عمّا يفعله اليوم بعلمه بذلك اليوم. قيمة الإيمان بالبعث ليست في القدرة على وصف مشاهدته فحسب، بل في أن يدخل البعث إلى السوق والبيت والخصومة والقرار، فيمنع اليد من الحرام، واللسان من الكذب، والقلب من الجحود.

فإذا مدَّ الإنسان يده إلى مالٍ لا يحلُّ له، قالت له الآية: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ﴾؟ وإذا سوَّف التوبة كأنه يملك عمره، قالت: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ﴾؟ وإذا آذى من لا يقدر على ردِّ أذاه، قالت: سيخرج الضعيف والقوي من القبور إلى ربِّ لا تضيع عنده الحقوق. وإذا اختبأ خلف صورته الجميلة، قالت: ليست القبور وحدها ما سيُبْعَث، بل الصدور أيضاً ستُحْصَل.

إن العلم الحقيقي بالبعث يمنح الإنسان عينين: عيناً ترى الحاضر، وعيناً ترى امتداده الأبدي. لا يزهّد في اللقمة، لكنه يسأل عن حلها؛ ولا يحتقر الكلمة، لأنه يعرف بقاء أثرها؛ ولا يستصغر النية، لأنه يعلم أن الصدور ستُحْصَل. يعيش على الأرض بقدميه، لكن ميزانه معلقٌ بالسما.

وسياتي اليوم الذي تنشق فيه الأرض عن ساكنيها، ويقوم الإنسان من موضع ظن الأحياء أنه آخره. حينئذٍ لن يسأل كم لبث، بل ماذا حمل؛ ولن يفتقد البيت الذي بناه بقدر ما يفتقد

عملاً صالحاً آخره؛ ولن ينظر إلى الأموال التي تركها، بل إلى الحقوق التي تعلق بها.

فطوبى لمن رأى القبر قبل أن يدخله، لا بعينه وإنما ببصيرته؛ فوسّع به معنى حياته، وهذب به شدة حبه للعالم، وردّ به قلبه من الكنود إلى الشكر. وطوبى لمن علم قبل أن يسأل، واستعد قبل أن يُعثر، ونظّف صدره قبل أن يُحصّل؛ لأن الحقيقة التي ينفع عليها هي الحقيقة التي تغير صاحبها قبل أن تصبح مشهداً لا يملك تغييره.

الفصل العاشر

وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ

يوم تُستخرج النيات وتسقط آخرُ أقنعة الإنسان

قال الله تعالى:

﴿وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ﴾

لو توقفت السورة عند بعثرة القبور لكان المشهد مزلزلًا: أرضٌ تنشق، وأجسادٌ تخرج، وبشريةٌ كاملةٌ تنهض من مراقدها. لكن القرآن ينقلنا من الحدث الخارجي إلى حدثٍ أعمق وأشد رهبة؛ فليست الأجساد وحدها هي التي ستخرج من مخابئ الأرض، وإنما الحقائق أيضًا ستخرج من مخابئ النفس:

﴿وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ﴾.

هناك تُبعثر القبور، وهنا تُحصّل الصدور؛ هناك يُستخرج الجسد الذي خبأته الأرض، وهنا يُستخرج السر الذي خبأه الإنسان. في المشهد الأول ينكشف مكانه، وفي المشهد الثاني تنكشف

حقيقته؛ يخرج من تحت التراب كما خرج كل الناس، ثم يخرج ما في قلبه على صورةٍ لا يشترك معه فيها أحد. فالأجساد قد تتشابه في قيامها، أما السرائر فهي التي تميز المصائر.

والتحصيل هو استخراج الشيء، وجمعه، وتمييزه، وإظهار حقيقته بعد أن كان مختلطاً أو مستوراً. ليست المسألة كشف خاطرٍ عابرٍ مرّ في القلب ثم انصرف، وإنما إظهار ما استقر في الصدور، وما انعقدت عليه النيات، وما وجه الأعمال من إيمانٍ أو جحود، وإخلاصٍ أو رياء، ومحبةٍ أو حقد، وصدقٍ أو نفاق. هناك تُصَفَّى المعاني من أغلفتها، وتُستخرج المقاصد من وراء الأفعال، ويظهر العمل كاملاً: صورته التي رآها الناس، وروحه التي لم يرها إلا الله.

إن الإنسان في الدنيا يعيش منقسماً بين ظاهرٍ وباطنٍ؛ له وجهٌ يقدمه للعالم، وداخلٌ قد يوافق هذا الوجه أو يناقضه. يستطيع أن يتسم وفي قلبه غضب، وأن يمدح وهو يحسد، وأن يعطي وهو يريد السيطرة، وأن يصمت لا حلماً بل عجزاً، وأن يتكلم عن الحق

وهو يطلب لنفسه مكاناً. ليست الأفعال دائماً كاذبة، لكن معانيها لا تُقرأ من ظاهرها وحده؛ فقد تتشابه صورتان في أعين الناس وتختلفان عند الله اختلافاً بعيداً.

قد يقف رجلان في صلاةٍ واحدة، في مكانٍ واحد، بحركاتٍ متشابهة؛ لكن قلب أحدهما قائمٌ بين يدي الله، وقلب الآخر قائمٌ بين يدي صورته في أعين الناس. وقد ينفق اثنان المقدار نفسه، فيخرج مال الأول رحمةً وشكراً، ويخرج مال الثاني طلباً للشئ أو استعلاءً على المحتاج. وقد يكتب اثنان الكلمة نفسها، فيريد أحدهما نصرة الحق، ويريد الآخر أن يُنصر اسمه من خلال الحق. الصورة واحدة، لكن ما في الصدور يصنع بين العاملين مسافةً لا تراها العين.

ولهذا فإن الآخرة ليست يوم عرض الأفعال الظاهرة وحدها، بل يوم كشف البنية الباطنة التي منحت الأفعال معناها. فالنية ليست تفصيلاً صغيراً يُضاف إلى العمل بعد اكتماله، وإنما هي روحه وجهته؛ بها يتحول السلوك العادي إلى عبادة، ويفسدها

قد يتحول العمل الكبير إلى جسدٍ بلا حياة. لقمةٌ يضعها الإنسان في فم أهله بنية الكفاية والرحمة تصبح قربى، وكلمةٌ يقولها ليهدي بها قلباً تصبح نوراً، وامتناعٌ عن ظلمٍ لا يعرف به أحد يصبح موقفاً عظيماً؛ لأن عين الله رأت المعنى الذي لم تره عيون الناس.

غير أن الحديث عن النيات لا يعني أن حسن القصد يجعل كل وسيلةٍ صحيحة؛ فالنية الطيبة لا تُحلّ الحرام، ولا تحول الظلم إلى عدل، ولا تعفي الإنسان من طلب الصواب. قد يقصد المرء خيراً ويسلك إليه طريقاً فاسداً، فيبقى فساد الطريق قائماً. الإسلام يزيك المقصد والفعل معاً؛ يريد قلباً مخلصاً وعملاً مستقيماً، لأن الحق لا يحتاج إلى الباطل كي ينتصر، والخير لا يُبنى على سحق الأبرياء، والرحمة لا تأتي من أبواب الظلم.

إن بعض الناس يحتمون بقولهم: نيتي طيبة، حين تُنقد أفعالهم، وكأن النية صندوقٌ مغلقٌ يمنع المساءلة. لكن صدق النية يظهر كذلك في استعداد الإنسان لمراجعة الوسيلة، وفي قبوله أن

يتوقف حين يعرف أنه أخطأ. الذي يريد الحق حقاً لا يصر على طريقٍ ثبت فساده لمجرد أنه هو الذي اختاره، أما الذي يجعل نيته ذريعةً لإلغاء كل نقد فقد تكون محبة النفس داخليةً في قصده أكثر مما يظن.

ويكشف قوله: ﴿مَا فِي الصُّدُورِ﴾ اتساع العالم الداخلي للإنسان. ما أكثر ما نتسع له هذه المساحة الصغيرة خلف الأضلاع: إيمانٌ وشكٌ، وحبٌ وكراهيةٌ، ورجاءٌ وخوفٌ، وذكرى لا تموت، وجرحٌ لا يعرفه أحدٌ، وحلمٌ خفيٌ، وحسدٌ يستحي صاحبه من تسميته، وحنينٌ يضيء الروح، وذنبٌ يهرب الإنسان من مواجهته. الصدر عالمٌ كاملٌ يمشي به الإنسان بين الناس، ولا يطلعون منه إلا على ما تسمح به كلماته وملاحظه.

قد يجلس الإنسان وسط جمعٍ كبير، وفي صدره قصةٌ لا يعلمها أحدٌ؛ يراه الناس هادئاً بينما يخوض في داخله معركةً كاملة، ويرويه قوياً بينما يتكى بقلبه على آخر خيطٍ من الصبر، ويرويه مذنباً بينما في صدره ندمٌ صادقٌ يرفعه عند الله، ويرويه صالحاً

بينما تختبئ وراء الصلاح الظاهر نيةً تطلب الدنيا. نحن نرى
الوجوه، والله يعلم الصدور.

وهذا المعنى ينبغي أن يورث الإنسان تواضعاً في الحكم على
الخلق؛ فلا نزكي من ظاهره بغير علمٍ تزكيةً مطلقة، ولا نغلق
أبواب الرحمة على من رأينا منه زلة، ولا ندعي قراءة السرائر. لنا
الظاهر الذي تقوم به أحكام الدنيا، وأما الباطن فيألى الله. قد
نتنقد فعلاً ظاهراً لأنه ظلم أو خطأ، لكن لا يحق لنا أن نزعم
امتلاك علمٍ كاملٍ بقلب صاحبه؛ فذلك مقامٌ اختص الله به.
إن عبارة: «الله يعلم ما في القلوب» ليست ستاراً يمنع به نقد
الظلم، كما أنها ليست رخصةً لاتهام النيات. نزن الفعل بما ظهر
من الحق، ونترك السريرة لربها؛ فلا نقول للمحسن: باطنك فاسد
بغير بينة، ولا نقول للمسيء: يكفي أنك تدعي حسن القصد.
عدل الشريعة يحفظ المجالين: يحاسب السلوك الظاهر بمقتضى
الأدلة، ويكل حقيقة السريرة إلى الخبير.

والصدر في التعبير القرآني موضع ما يستتر ويضيق به الإنسان أو ينشرح؛ ولعل اختيار ﴿الْصُّدُورُ﴾ بدل القلوب يوسّع الصورة لتشمل كل ما اختزنته النفس في باطنها. إنه الخزن الذي حملت فيه حياتك الداخلية: ما أحببت، وما كرهت، وما نويت، وما أخفيت، وما قاتلت كيلا يعرفه أحد. وفي يوم التحصيل لا تضع جزئيةً من هذا التاريخ الباطني.

كم من خيرٍ عاش في الصدور ولم يستطع أصحابه إظهاره، سيخرجه الله ولا يضيعه! نيةٌ فقيرٍ تمنى أن يبذل لو ملك، وعزمٌ مريضٍ على طاعةٍ منعه عنها ضعفه، وصدقُ إنسانٍ أسيء فهمه، ومحبةٌ طاهرةٌ لم تطلب جزاءً، ودمعةٌ نزلت في خلوة، ومقاومةٌ شهوةٍ لم يرها أحد؛ كل ذلك ليس عدماً لأنه لم يدخل ذاكرة الناس. الله خبيرٌ به، وسيُحصَل في اليوم الذي تظهر فيه قيمة الخفايا.

وكذلك كم من شرٍّ اختبأ خلف الجمال الظاهر سيظهر: صدقةٌ أريد بها الاستعلاء، وموقفٌ عادلٌ اتُّخذ للانتقام من خصم،

وكلمة حقٍ قلت ابتغاء الباطل، وعبادةً كان محورها نظر الناس،
ورحمةً ظاهرها اللطف وباطنها المنّ والسيطرة. إن الإنسان
يستطيع أن يضع على دوافعه أسماءً نبيلة، لكن يوم التحصيل لا
يعمل بالأسماء التي اخترعها، بل بالحقيقة التي يعلمها الله.

في الدنيا تُخلط النيات؛ قد يبدأ العمل لله ثم يدخل عليه حب
الثناء، أو يبدأ للنفس ثم يستيقظ القلب فيصح قصده. الإنسان
ليس دائماً بسيط الدافع؛ قد تتحرك فيه رغباتٌ متباينة، ويظل
يجاهد كي يغلب الأعلى منها. والله يعلم هذا الجهاد، ويعلم الفرق
بين خاطرٍ قاومه صاحبه حتى أضعفه، وبين نيةٍ احتضنها وغذاها
ثم زينها لنفسه.

ليس كل ما يخطر في الصدر يُحاسب عليه الإنسان كما يُحاسب
على العزم المستقر والعمل؛ فالخواطر تطرق القلوب بغير
استئذان، والإنسان قد يكرهها ويدفعها. القيمة الأخلاقية تظهر
في موقفه منها: هل فتح لها الباب، وأقامها، وحوّلها إلى إرادة؟ أم
استعاذ بالله منها وجاهدها حتى انصرفت؟ يوم التحصيل لا يظلم

الله نفساً، ولا يجعل الوسوس التي قاومها المؤمن كالتوايا التي رضي بها وأصر عليها.

بل ربما صار جهاد الخاطر السيئ باباً من أبواب القرب؛ فالإنسان الذي يشعر بالحسد ثم يقاومه، ويدعو لمن حسده، ويمنع لسانه من الأذى، ليس كالذي يستسلم للحسد ويغذيه. لا يُطلب من النفس أن تكون بلا انفعالاتٍ بشرية، وإنما أن تتربى على ألا تجعل كل ما تشعر به سيئاً عليها. الطهارة ليست غياب المعركة دائماً، بل قد تكون أن ينتصر الإنسان في المعركة التي لا يراها أحد.

وما أكثر المعارك التي تقع في الصدور دون أثرٍ ظاهر! إنسانٌ كان قادراً على كلمةٍ تؤذي فسكت لله، وآخر كان يستطيع الخيانة فردّه خوف الله، وثالث رأى باب الحرام مفتوحاً ولم تكن عليه عينٌ بشرية، فغلب شهوته وأغلق الباب. لا توجد صورةٌ يصفق لها الناس، لكن في الصدر حدثٌ عظيم؛ قامت حربٌ

وانتصر فيها الإيمان. سيُحصَل هذا كله، ولن يضيع صبرٌ لأنه كان صامِتًا.

كما أن في الصدور جراحًا لا يعرف الناس مقدار ما كلّفت أصحابها. قد يظنون صبر الإنسان أمرًا عاديًا، ولا يعلمون أنه يمسك نفسه كل يومٍ من حافة الانهيار، وقد يرون ابتسامته ولا يعرفون كم بكى قبل أن يخرج إليهم. يوم التحصيل يوم عدلٍ كذلك للمشاعر المستورة؛ تظهر فيه أثقالُ حملها أصحابها دون شكوى، ويُعرف مقدار ما بذلوه كي يبقوا على الخير رغم الألم. إن هذه الآية مخيفةٌ للمنافق، لكنها مطمئنةٌ للمظلوم والمخلص؛ مخيفةٌ لمن بنى منزلته على ظاهرٍ جميلٍ وباطنٍ فاسد، ومطمئنةٌ لمن ساء فهم الناس له بينما يعلم الله صدقه. ليست كل خفايا الصدور فضائح؛ في بعضها كنوزٌ من الإيمان لا تعرفها الأرض، وأعمال قلوبٍ قد تكون أعظم عند الله من أعمالٍ صاخبةٍ ملأت الأسماع.

قد يعيش الإنسان غير معروفٍ بين الناس، لكن صدره عامرٌ
بمعرفة الله، وبالرضا والتوكل والرحمة. لا يملك مشروعاً ضخماً
يُشار إليه، ولا خطاباً يتداوله المجالس، لكنه يملك قلباً إذا ذُكر
الله خشع، وإذا رأى محتاجاً رحم، وإذا أُسيء إليه عفا، وإذا
نزل به القدر سلم. يوم التحصيل قد يظهر أن هذا القلب المجهول
كان من أعظم مباني الخير في الأرض.

والآية لا تؤجل العناية بالقلب إلى الآخرة، بل تستدعي
تحصيلاً اختيارياً في الدنيا قبل التحصيل الحتمي هناك؛ أن
يستخرج الإنسان ما في صدره، وينظر إليه في ضوء الوحي، ويميز
حب الله من حب الظهور، والغيرة للحق من الانتصار للنفس،
والخوف المشروع من الجبن المتخفي، والطموح الشريف من
الجوع إلى التفوق على الآخرين.

إن النفس ماهرةٌ في خلط المقاصد؛ تدخل إلى العمل من باب
الله، ثم تفتح للنفس نافذةً صغيرة، فلا تزال النافذة تنسع حتى
يخرج الإخلاص من الباب. يبدأ الكاتب يريد نفع الناس، ثم

يصبح همه أن يُقال عنه؛ ويبدأ الداعية يريد هداية القلوب، ثم يغضب إذا جاء الخير على يد غيره؛ ويبدأ صاحب السلطة يريد الإصلاح، ثم يقنع نفسه بأن بقاءه في السلطة هو الإصلاح ذاته. من لم يفتش قلبه برفقٍ وصدقٍ قد تستولي عليه نيته الثانية وهو ما يزال يتحدث بلغة نيته الأولى.

وعلاوة الإخلاص ليست أن يزعم الإنسان أنه مخلص، فربما كان هذا الزعم نفسه لوناً من الغرور، بل أن يظل خائفاً على قصده، سائلاً الله القبول، قادراً على الفرح بالخير إذا تحقق على يد غيره. الذي يريد وجه الله يهمله أن يصل الحق، لا أن يكون هو الطريق الوحيد لوصوله؛ ويفرح بنجاح العمل ولو لم يُذكر اسمه، ويحزن لفشل الرسالة أكثر من حزنه لغياب صورته.

أما النفس المحبة للظهور فتقبل الخير ما دام يحمل توقيعهما؛ فإذا انتقل إلى غيرها شعرت كأنه خسارة، وإذا مدح الناس شريكاً لها ضاق صدرها، وإذا نُسي اسمها بعد نجاح العمل نسيت فرحتها

بالنجاح. هنا يكشف القلب أنه لم يكن يحب الخير وحده، بل كان يحب نفسه وهي واقفةٌ في مركز الخير.

ويوم تُحصّل الصدور ينفصل الخير عن الصور التي تستر بها، ويتبين للإنسان أن أخطر شركائه في عمله لم يكن خصماً خارجياً، بل ذاته الباحثة عن نصيبٍ من كل شيء. فما أشد حاجة المؤمن إلى أن يهمس في قلبه مراراً: يا رب، خذ هذا العمل لك، ونقّه منّي؛ خلّصه من رغبتى في أن أرى، ومن فرحى بنفسى، ومن منّي على الناس، واجعله باقياً عندك ولو نسيه العالم كله.

وتنظيف الصدر لا يعني تفريغهُ من كل علاقةٍ بالدنيا، فالإنسان يحب أسرته ووطنه ونجاحه ورزقه، وهذه محابّ فطريةٌ مشروعة؛ لكن التزكية أن توضع المحابّ في مراتبها، فلا يطغى فرعٌ على الأصل، ولا يتحول حب شيءٍ إلى مبررٍ لمعصية الله. كل حبٍّ يعين على الحق يتطهر، وكل حبٍّ يطلب منك أن تحنّ الحق يحتاج إلى مقاومة.

وفي الصدر كذلك أحقادٌ قد يعتادها الإنسان حتى تصبح جزءاً من تعريفه لنفسه؛ يربط هويته بمن يكره، ويحمل خصمه معه إلى كل مكان، ويعيد محاكمته في خياله سنوات. يظن أنه يعاقب من ظلمه، لكنه في الحقيقة يمنحه إقامةً دائمةً في قلبه. ويأتي قوله: ﴿وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ﴾ ليدكره أن عليه تنظيف هذا الموضع قبل أن يلتقي الله؛ لا بإسقاط حقوق المظلومين، ولا بتسمية الظلم خيراً، بل بتحرير القلب من أن يتحول إلى نسخةٍ من شر الظالم.

العفو ليس دائماً إلغاءً للمساءلة، فقد يحتاج الحق إلى أن يُسترد، والعدوان إلى أن يُوقف؛ لكن يمكن للإنسان أن يطلب العدل دون أن يعبد الانتقام، وأن يمنع الظلم دون أن يجعل الكراهية غذاءً لروحه. الفرق دقيق، وميدانه الصدر، والله وحده يعلم مقدار ما في مطالبة الإنسان بحقه من عدلٍ ومقدار ما فيها من رغبةٍ في التشفي.

وكما يحتاج الصدر إلى التطهير من الحقد، يحتاج إلى التحرير من شدة حب الخير التي ذكرتها السورة؛ فالمال يسكن أولاً في التصورات قبل أن يسكن الخزائن. قد يخرج الإنسان من يده ولا يخرج من قلبه، وقد يفقده في الواقع ويظل يعيش عبداً لذكراه. يوم التحصيل لا يُسأل القلب عن مقدار ما ملك فقط، بل عن مقدار ما امتلكه المال منه.

إن الإنسان حريصٌ على تنظيف ظاهره؛ يغسل ثوبه إذا رأى عليه بقعة، ويرتب منزله إذا دخل عليه ضيف، ويصلح صورته إذا خرج إلى الناس. لكن الصدر هو المنزل الذي ينظر الله إلى حقيقته، فكم مرةً ينظفه؟ كم مرةً يزيل منه غبار الحسد، وفوضى التعلق، وبقايا الكبر، وعفن الضغينة؟ قد لا يرى الناس اضطرابه، لكن الأشياء التي تُترك طويلاً في الداخل لا تختفي؛ إنها تتخمر، ثم تخرج في كلمةٍ أو موقفٍ أو نظرة.

والمداومة على الذكر من أعظم ما يعيد ترتيب هذا العالم الداخلي؛ فالذكر لا يضيف معلومةً جديدةً دائماً، لكنه يعيد

الحقيقة الكبرى إلى مركز القلب. حين يقول الإنسان: الله أكبر، فهو لا يقرر وصفاً لله فحسب، بل يزيح الأشياء التي تضخمت في صدره عن مقامها؛ يقول لهمومه: الله أكبر، ولخاوفه: الله أكبر، وللهال الذي اشتد حبه: الله أكبر، وللناس الذين عظم سلطانهم في نفسه: الله أكبر. فإذا صدق القلب في هذه الكلمة عادت الأجماع إلى حقيقتها.

والقرآن مرآة الصدور؛ قد يقرأ الإنسان الآية فيظن أنه يقرأ كلاماً عن الآخرين، فإذا تلاها بصدقٍ وجدها تكشف موضعاً في داخله. لا يكتفي القرآن بإعطائه معلوماتٍ عن الخير والشر، بل يعرفه بنفسه، ويضعه أمام التناقض بين ما يقول وما يريد. وكل تلاوةٍ لا تقود إلى هذه المواجهة تظل بعيدةً عن وظيفة الوحي في التزكية.

والدعاء اعترافٌ بأن الإنسان لا يستطيع إصلاح قلبه بقوته وحدها؛ فالقلوب بين يدي الله، والإخلاص توفيق، والثبات رحمة. يأخذ العبد بأسباب المحاسبة والمجاهدة، لكنه يعرف أن

قلبه أفقر إليه من جسده إلى الطعام. وما أضعف الإنسان إذا وكله الله إلى نفسه؛ قد يبدأ مخلصاً ثم تسرقه نظرة، ويثبت طويلاً ثم يفتنه ثناء. لذلك لا يستغني عن سؤال ربه أن يطهر صدره ويصح قصده.

إن يوم التحصيل يوم سقوط الفوارق بين اللغة والحقيقة. لن تنفع الأسماء الجميلة للأدواء، ولا الروايات التي كتبناها لتبرير ذواتنا، ولا الصور التي صدقها الناس. ستظهر المحبة بما كانت تتجه إليه، والغيرة بما كانت تدافع عنه، والصدقة بما كانت تطلبه، والصمت بما كان يخفيه، والكلمة بما كانت تريده. كل معنى يعود إلى اسمه الحقيقي.

ومع ذلك فإن خاتمة هذا التأمل ليست الخوف وحده، بل الرجاء أيضاً؛ فالذي سيحصل الصدور هو الرب الخبير الذي يعلم ضعف عباده، ويميز زلتهم من إصرارهم، ووسواسهم من عزمهم، ومحاولتهم الصداقة من ادعائهم. يعلم كم مرة سقطوا ثم عادوا، وكم مرة قاتلوا أنفسهم دون أن يراهم أحد، وكم خير

تمنّوه وعجزوا عنه. خبرته ليست خبرة متصيدٍ للزلات، تعالى الله عن ذلك، بل علم ربّ كامل العدل واسع الرحمة، لا يظلم مثقال ذرة.

لكن الرجاء لا يكون ستاراً للإقامة على الفساد؛ فمن عرف سعة الرحمة ازداد حياءً، ومن علم أن الله خيرٌ بصدده حرص على أن يلقاه بقلبٍ سليم. الرحمة باب العودة، لا رخصة الغفلة؛ والستر فرصة للتطهر، لا دليلٌ على أن الخفي سيظل خفياً.

لقد كانت الخيل في أول السورة تدخل وسط الجمع، وهنا يدخل التحصيل وسط الإنسان؛ لا يقف عند جلده وثوبه واسمه، بل يبلغ السريرة. وكما لم يمنع النقع العاديات من بلوغ مقصدها، فلن تمنع الأقنعة العلم الإلهي من بلوغ حقيقة الصدر. كل ما أحاط الإنسان به نفسه من مظهرٍ وسمعةٍ وخطابٍ سيتنحى، ويبقى ما كان في الداخل.

فليبدأ الإنسان من الآن بفتح صدره لنور الله قبل أن يُفتح للحساب؛ وليُخرج منه ما يستطيع من كنودٍ وحقدٍ ورياء، وليزرع

فيه شكراً ورحمةً وإخلاصاً. ما دام حياً يستطيع أن يبدل ما سيُحصَل، وأن يحو بالتوبة ما كتبتَه الغفلة، وأن يحوّل القلب من مخبأٍ للظلمات إلى موضعٍ للنور.

وسوف تأتي خاتمة السورة لتضع هذا التحصيل كله داخل العلم المحيط:

﴿إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ خَبِيرٌ﴾.

فلا شيءٌ مما في الصدور يخرج إلى مجهول، ولا سريرةٌ تُعرض على ميزانٍ ناقص، بل على ربٍّ يعرف الإنسان أكثر مما يعرف الإنسان نفسه؛ يعلم ما أخفاه، وما نسيه، وما قاومه، وما ندم عليه، وما تاب منه. وهناك، عند اكتمال الخبرة والعدل، يعرف كل امرئٍ أن أخطر ما حمّله في رحلته لم يكن ما في يده، بل ما في صدره.

الفصل الحادي عشر

إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ

حين ينتهي كلُّ شيءٍ إلى علم الله وعدله

تصل سورة العاديات إلى خاتمتها بهذه الآية الجامعة:

﴿إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ﴾.

بدأت السورة بصوت الأنفاس المتلاحقة، وتنتهي بسكون العلم الإلهي المحيط؛ بدأت بحركة تكاد تملأ الأرض، وتنتهي بحقيقة لا تتحرك ولا تتبدل: أن الله سبحانه خيرٌ بعباده. وبين الضَّبح والخبرة، والعدو والعلم، والنقع والتحصيل، تمرّ رحلة الإنسان كلها؛ يركض، ويجمع، ويحب، ويمجد، ويخفي، ثم يخرج من قبره ليجد أن كل ما ظنه مستوراً كان حاضراً في علم ربه.

لم تقل الآية: إن الله بهم خير، بل قالت:

﴿إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ﴾.

فعدت إلى اسم الربوبية الذي ورد في قلب السورة: ﴿إِنَّ
الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾. هناك كان الإنسان كنوداً لربه، وهنا
يظهر أن ربه خيرٌ به. إنه يقابل الربوبية بالحدود، ويقابله الله بالعلم
والعدل، ولم يخرج الإنسان بكنوده عن ملك الله، ولم تستره
غفلته عن علمه، ولم تمنعه معصيته من أن يكون عبداً واقعاً تحت
تدبيره وسلطانه.

واختيار لفظ ﴿رَبِّهِمْ﴾ في مشهد الحساب يحمل معنىً ميباً؛
فالذي يحاسبهم ليس مجهولاً عنهم، ولا قوةً غريبةً لم يعرفوا
آثارها، بل ربهم الذي خلقهم وربّاهم بالنعيم، وأرسل إليهم
الرسل، وأنزل إليهم الآيات، وأمهّلهم، وفتح لهم أبواب التوبة.
يقفون أمام من عاشوا أعمارهم كلّها في ملكه، وتقلّبوا في فضله،
واستعملوا جوارح خلقها لهم، وسكنوا أرضاً مهدّها، واستظلّوا
بسماء رفعها.

ولهذا فإن الحساب ليس لقاءً بين الإنسان وربٍّ لم تسبق له به
صلة، بل انكشافٌ نهائيٌّ لعلاقةٍ كانت قائمةً في كل لحظة، وإن

نسيتها الإنسان. كان الله ربّه حين شكر وحين مجد، وحين أطاع وحين عصى، وحين ذكره وحين غفل عنه. لم يكن نسيان العبد لله غياباً لله عنه، وإنما كان غياباً للعبد عن وعيه بربه؛ لأن الله لا يغيّب، ولا يخفى عليه شيء.

إن لفظ ﴿خَيْرٌ﴾ لا يدل على مجرد العلم العام، بل يحمل معنى الإحاطة بدقائق الأشياء وبواطنها، وبما لا تصل إليه الأبصار ولا تدركه الظنون. الله خيرٌ بالعمل وظاهره، وبالنية وسرها، وبالمدافع الذي حرّكها، وبالظرف الذي أحاط بها، وبمقدار القدرة والعجز، وبالفرصة التي أُتيحت، وبالموانع التي حالت، وبالفارق بين من أراد الخير فعجز عنه، ومن قدر عليه ثم أعرض.

إن البشر حين يحكمون لا يرون إلا جزءاً من القصة؛ يسمعون كلمةً ولا يعرفون دائماً ما سبقها، ويرون موقفاً ولا يطلعون على كل دوافعه، ويقيسون الألم بما ظهر منه، لا بما وقع في أعماق صاحبه. أما خبرة الله فليست علماً بجزءٍ منعزل، بل علمٌ بالإنسان

كاملاً: تاريخه الذي نسيه، وطفولته التي شكّلتها، وجرحه الذي أخفاه، ونيته التي قاومها، وخاطره الذي كرهه، وعزمه الذي حال الموت بينه وبين تنفيذه.

وهذه الخبرة الإلهية هي أساس العدل الكامل؛ لأن الحكم الذي لا يحيط بكل شيء قد يظلم من حيث لا يريد. أما الله فلا يخفى عليه عنصرٌ واحدٌ من عناصر القضية، ولا يحتاج إلى شاهدٍ يكمل له نقصاً في العلم، ولا إلى اعترافٍ يكشف له مجهولاً. إنما تُقام الشهادات وتُنشر الصحف لتقوم الحجّة على الإنسان، ويرى عدل الحكم بنفسه، لا ليعلم الله ما لم يكن يعلم.

فقوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ لا يعني أن خبرة الله تبدأ في ذلك اليوم؛ تعالى الله عن أن يطرأ على علمه علمٌ لم يكن، فهو سبحانه لم يزل عالماً بخلقه، محيطاً بظواهرهم وبواطنهم، لا يخفى عليه شيءٌ في الأرض ولا في السماء. وإنما خُصّ ذلك اليوم بالذِكر لأن آثار هذه الخبرة تظهر فيه ظهور الجزاء والحكم، ولأن الإنسان

يواجه يومئذٍ ما كان الله يعلمه عنه في الدنيا، ولا يعود قادراً على ستره أو الفرار من نتيجته.

الله خبيرٌ بالإنسان قبل أن يُخلق، وخبيرٌ به وهو جنينٌ لا يعرفه أحد، وخبيرٌ به وهو يمشي في الأرض، وخبيرٌ به حين يصير تراباً، وخبيرٌ بذرات جسده إذا تفرقت، وبموضع كل جزءٍ منها، ثم يعيده كما بدأه. لا يضيف البعث إلى علم الله شيئاً؛ إنما يضيف إلى وعي الإنسان معاينة ما كان يكذب به أو يغفل عنه.

والتعبير بـ ﴿بِهِمْ﴾ يجعل الإنسان كله موضوعاً لهذه الخبرة؛ ليس بأعمالهم وحدها، ولا بأقوالهم وحدها، بل بهم: بذواتهم، وقلوبهم، وأسرارهم، ومخاوفهم، وآمالهم، وعلاقاتهم، واستجاباتهم للنعم والابتلاءات. يعرف الله ماذا فعلوا، ويعرف كذلك مَنْ كانوا حين فعلوا؛ يعرف العمل، ويعرف الروح التي صدر عنها العمل.

قد يخطئ الناس في تقدير إنسانٍ لأنهم فصلوا فعله عن قدرته؛ يطلبون من الضعيف ما يطلبونه من القوي، ومن الجريح ما

يطلبونه من المعافى، ومن الذي بدأ الطريق متأخراً ما يطلبونه ممن
نشأ في بيئة الهداية. أما الله فيحاسب كل نفسٍ بعلمٍ كاملٍ بما
أتاها وما قامت عليها به الحجة، فلا يُنقص محسناً من إحسانه، ولا
يحمل نفساً ما لم تكسب.

وخبرة الله ليست مخيفةً من جهة العدل فقط، بل مطمئنةٌ من
جهة الرحمة؛ فهو يعلم أينما لم تستطع أن تشرحه، وصبراً لم يصفق
له أحد، ومحاولةً صغيرةً سخر منها الناس لكنها استنفدت ما تملك
من قوة. يعلم أنك قد نتعثر بينما قلبك يريد الطريق، وأنت قد
تبكي من ذنبٍ يراك الناس فيه مستهيناً لأنهم لا يرون بكاءك،
وأنت قد تبسم لتواسي غيرك بينما تحمل في صدرك ما يكفي
لإسقاطك.

الناس يقيسون النتيجة، والله يعلم مقدار المجاهدة التي سبقتها؛
قد يصل إنسانٌ إلى منزلةٍ عاليةٍ بيسرٍ لأن الطريق مُهدٍ له، ويتقدم
آخر خطوةً واحدةً بصعوبةٍ لأنها جاءت بعد معركةٍ طويلة. لا

يضيع عند الخبير ثقل الخطوة، ولا مقدار المقاومة، ولا الألم الذي جرى تجاوزه كي تقع الطاعة.

قد تقول كلمة طيبة وينساها من سمعها، لكن الله خير بها؛ وقد تمتنع عن أذى إنسان ولا يعرف أنك كنت قادراً عليه، لكن الله خير؛ وقد تحفظ عرض غائب لا يعلم أنك دافعت عنه، لكن الله خير؛ وقد تنفق في خفاء ثم تموت القصة في ذاكرة الأرض، لكنها لا تموت في علم السماء. وما كان الله خبيراً به لا يضيع لأنه لم يكتب في سجلات الناس.

وهذا يمنح المخلص حرية عظيمة من عبودية الظهور؛ فإذا كان الله يعلم، فما حاجته إلى أن يعرف الجميع؟ وإذا كان الله قد رأى، فلماذا ينهار لأن الناس لم يروا؟ وإذا كان الجزاء عند الخبير، فما الذي يخسره حين يفوته الثناء العابر؟ إن حاجة الإنسان المفرطة إلى الإعلان عن كل خيرٍ يفعله قد تكشف ضعف يقينه بأن علم الله كافٍ.

ليس المقصود أن يخفي كل عملٍ بالضرورة، فقد يكون في إظهار بعض الخير قدوةً وتعليم، ولكن القلب هو موضع السؤال: هل أظهره لتتفع الرسالة، أم لأن نفسي لا تحتمل أن يفوتها نصيبها من المدح؟ هل يسعدني أن يتحقق الخير إذا غاب اسمي، أم أن غياب اسمي يفسد عليّ فرحتي؟ هذه الدقائق لا يحسمها ظاهر العمل، لكن الخبر يعلمها.

وفي الجهة المقابلة، فإن علم الله الخبر يهدم وهم الخفاء الذي يغري الإنسان بالمعصية. قد يُحكم إغلاق الباب، وتغيب العيون، ويأمن صاحب الذنب انكشافه في الدنيا، لكنه لا ينتقل لحظةً واحدةً إلى خارج علم الله. إن المكان الذي لا يراه فيه الناس ليس مكاناً بلا شاهد؛ عين الله لا تغيب، والخلوة ليست فراغاً من الرقابة، بل امتحانٌ لحقيقة الإيمان.

الذي يمنعه نظر الناس ويجرؤ حين يغيبون لم يستقر في قلبه بعد معنى الخبر؛ جعل البشر مركز الرقابة، فإذا انصرفوا انصرف وازعه. أما المؤمن فيستحي من الله في الخلوة أكثر مما يستحي من

الناس في العلن، لا لأنه يراه ببصره، بل لأنه يعلم أن الله يراه، وأن السر عنده علانية، وأن ما يدفنه في الصدر سيُحصّل.

وما أجهل أن يتحول هذا العلم من رقابةٍ مخيفةٍ وحدها إلى أنسٍ عميق؛ فالله الذي يرى ذنبك يرى توبتك، والذي يعلم ضعفك يعلم مقاومتك، والذي أحاط بسقوطك أحاط بنهوضك. لا تحتاج أن تشرح له ما عجزت عن شرحه للبشر، ولا أن تصوغ حزنك في كلماتٍ كاملة؛ يعلم ما قبل الكلمة وما وراءها، ويفهم دعاءك حين لا يخرج من صدرك إلا أنين.

كم من إنسانٍ تألم لأنه لم يجد من يفهمه، ولو استقر في قلبه أن الله خيرٌ به لهدأ شيءٌ من وحشته. قد لا يفهم الناس سبب صمته، ولا مقدار ما يحتمله، ولا المعركة التي يخوضها ل يبقى مستقيماً؛ لكن الله يفهم بلا شرح، ويعلم بلا إخبار، ويسمع دعاء القلب قبل أن يتشكل في اللغة.

غير أن الأنس بخبرة الله لا يُغني الإنسان عن التواصل مع الناس وطلب العون ممن يثق بهم؛ فقد جعل الله البشر أسباباً

للرحمة، وجعل الكلمة الطيبة والمواساة والعلاج أبواباً من أبوابه. لكنه يحميه من أن يجعل فهم الناس شرطاً وحيداً لطمأنينته؛ فإن قصرت قدرتهم، بقي علم الله كاملاً، وإن أخطؤوا في قراءته، لم تتغير حقيقته عند ربه.

وتعيد الآية ترتيب علاقة الإنسان بأحكام الناس؛ فليس المطلوب أن يحتقرها كلها، فالسمعة الطيبة ثمرة حسنة، وقبول المؤمنين نعمة، والنقد الصادق باب إصلاح. لكن عليه ألا يجعل حكم الناس الحكم النهائي؛ فقد يرفعونه وهو عند الله وضيع، وقد يظلمونه وهو عند الله كريم. الميزان الأخير ليس ما كُتب عنه في الأرض، بل ما يعلمه الخبير عنه.

كم من إنسان صنع حول نفسه ضجيجاً هائلاً يشبه النقع الذي أثارته العاديات، ثم انقشع الضجيج ولم يبق تحته شيء! وكم من عبدٍ مرّ هادئاً لا يكاد يرى، وكان له في علم الله وزنٌ عظيم! الشهرة توسّع دائرة النظر البشري، لكنها لا تزيد علم الله، والخفاء يحجب الإنسان عن الناس، لكنه لا ينقص من خبرة ربه.

إن آخر كلمة في السورة: ﴿خَلِّيرٌ﴾، تعيدنا إلى أول مشهدٍ فيها وتكشف إحكام البناء. الله خيرٌ بالعادات حين عدت، وبالحوافر حين قدحت، وبالغبار حين ارتفع، وبالجمع حين توسطته الخليل. وخيرٌ كذلك بالإنسان حين بجد، وبنعمته حين نسيها، وبالمال حين اشتد حبه له، وبالسِر حين أخفاه في صدره. كل حركة في السورة تقع داخل العلم الإلهي؛ لا يضيع منها صوت نفس، ولا ذرة غبار، ولا خفقة قلب.

بدأت السورة بقسمٍ على حركة ظاهرة، وانتهت بخبرةٍ تشمل الظاهر والباطن؛ وكأنها تنتقل بالإنسان من العالم الذي يبهَر عينيه إلى الحقيقة التي ينبغي أن تهز قلبه. تستطيع أن ترى الخليل، والشرر، والنقع، والجمع؛ لكنك لا ترى الكنود والحب والنية والسريرة. والله يرى القسمين معاً، بل يعلم ما في الداخل قبل أن يظهر أثره في الخارج.

والإنسان محدود الخبرة بنفسه؛ قد ينسى مواقف، ويجهل بعض دوافعه، ويصنع لنفسه روايةً يصدقها مع الزمن. أما الله

فيعلمه دون نسيانٍ أو التباس. ولذلك فإن كمال العبودية ليس أن يزعم الإنسان أنه أحاط بنفسه، بل أن يقول: يا رب، أنت أعلم بي مني، فأصلح فيّ ما لا أراه، واغفر لي ما أعلمه وما لا أعلمه، ولا تكلني إلى نفسي.

إن معرفة الإنسان بأن الله خيرٌ به ينبغي أن تثمر صدقاً بدل التمثيل؛ فما فائدة أن يبدو صالحاً أمام من لا يملكون له نفعاً ولا ضرراً، بينما يعلم الله فساد باطنه؟ وما فائدة أن ينتصر في محكمة السمعة ويخسر في محكمة الحقيقة؟ إن المنافق يبذل طاقةً هائلةً في إدارة الفارق بين صورته وسريته، أما الصادق فيحاول تقليل المسافة بين ظاهره وباطنه، حتى يستريح من حمل الأقنعة.

ولا يعني الصدق أن يخبر الإنسان الناس بكل أسرارهِ؛ فالستر مطلوب، وليس كل باطنٍ مباحاً للعرض. إنما الصدق أن يكون ظاهره غير قائمٍ على خداعٍ متعمد، وأن يحرص على إصلاح الخفي أكثر من حرصه على تجميل العلني. يحتفظ بخصوصيته، لكنه لا يتخذ الخصوصية مصنفاً لحياة مزدوجة.

وفي يوم القيامة ينتهي سلطان اللغة التي صنع بها الإنسان صورته؛ لا يعود قادراً على استخدام البلاغة لصرف الأنظار، أو على اقتطاع الوقائع، أو على إسكات الشهود. يقف أمام الخبير الذي يعرف القصة كلها، لا الرواية التي اختار صاحبها نشرها. وهناك يكون عدل الله هو الأمان الوحيد؛ لأن علمه الكامل يمنع أن يُحمّل الإنسان ما لم يفعل، أو أن يُحرم خيراً لم يعرفه الناس. إن المؤمن لا يرجو النجاة لأنه نجح في إخفاء سيئاته، بل لأنه تاب منها إلى من يعلمها؛ ولا يرجو القبول لأن الناس أحسنوا الظن به، بل لأن الله أصلح نيته وتجاوز عن تقصيره. الثقة بحسن ظن الناس قد تكون حجاباً، أما الرجاء في رحمة الخبير فعبودية؛ لأن الإنسان يأتيه وهو يعرف أن لا شيء مستور، ثم يطمع في المغفرة لا في إمكان الخداع.

والتوبة نفسها لا تحتاج إلى أن يخبر العبد ربه بما حدث، فالله يعلمه، وإنما تحتاج إلى أن يعترف العبد لنفسه بين يدي ربه، وأن يخرج من عناد التبرير إلى ذل الافتقار. يقول: يا رب، أنت تعلم،

وأنا لم أعد أهرب مما تعلم؛ أستغفرك، وأندم، وأعود. هنا يتحول علم الله من حجةٍ على الإنسان إلى باب إنقاذٍ له؛ لأنه يقف أمام من يعلم حقيقة توبته كما علم حقيقة ذنبه.

ومن أعظم ما يبعث الرجاء أن خبرة الله لا تتعلق بلحظة السقوط منفصلةً عن رحلة العودة؛ يعلم الذنب والتوبة، والضعف والمجاهدة، والماضي الذي يندم عليه الإنسان والحاضر الذي يحاول إصلاحه. البشر قد يحبسونه داخل صورته القديمة، أما الله فيعلم ما صار إليه قلبه، ويعرف صدق التحول الذي لم يصدقه الآخرون بعد.

لكن لا ينبغي للإنسان أن يتخذ هذا المعنى ذريعةً للمماطلة، فيقول: الله يعلم أن قلبي طيب، بينما تستمر جوارحه في الظلم. طيبة القلب التي لا تمنع الأذى ولا تدفع إلى أداء الحقوق تحتاج إلى مراجعة؛ لأن ما في الصدر تظهر آثاره، وإن تأخر ظهورها. قد يضعف الطيب فيخطئ، لكن قلبه يدفعه إلى الندم والإصلاح، لا إلى جعل الطيبة المزعومة شهادة براءة دائمة.

قوله: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ يجعل للمعرفة موعداً تتحول فيه إلى جزاء؛ فالدنيا زمن الستر والإمهال والاختيار، والآخرة زمن الكشف والحكم. اليوم يستطيع الإنسان أن يغير ما يعلمه الله من حاله بتوبة صادقة؛ فإذا جاء ذلك اليوم انتهى زمن صناعة العمل، وبدأ زمن رؤية العمل. ما أعظم الفرق بين من يستحي من علم الله الآن فيعود، ومن لا يستيقظ إلا حين يصبح العلم حساباً!

إن كل يوم يمر بالإنسان فرصة كي يستبدل كنوداً بشكر، وحباً طاغياً للمال ببذل، وسريرةً ملوثةً بإخلاص، وذنباً مكتوباً بتوبة. الله خبيرٌ بما كان، وسيكون خبيراً بما صار إليه؛ فلا تقل: لقد عرفتني السماء مذنباً، بل قل: ستعرفني تائباً بإذن الله. ما دام العمر باقياً، فإن السجل لم يُختم، والقلب قابلٌ لأن يُغسل، والطريق إلى الله مفتوح.

وهكذا تنتهي السورة لا بصوت تهديدٍ مجرد، وإنما بحقيقة تجمع الخوف والرجاء: الخبير يعلم. يعلم ما تخفيه مما تخجل منه، نفخ؛ ويعلم ما تخفيه من خيرٍ لا يراه الناس، فاطمئن؛ ويعلم ضعفك،

فاستعن؛ ويعلم صدقك، فلا نتصنع؛ ويعلم كنودك، فاشكر؛ ويعلم حبك للمال، فطهر هذا الحب؛ ويعلم قبرك قبل أن تدخله، وسيعلمك حين تُبعثر، فلا تجعل بينك وبينه سرّاً تصرّ عليه.

في أول السورة كانت العاديات تركض نحو قلب الجمع، وفي آخرها يقف الإنسان أمام علم يبلغ قلبه دون أن يركض، ويحيط به دون أن يقتحم، لأنه لم يزل محيطاً به. لم تكن سريرته يوماً مغلقةً عن الله؛ كانت مغلقةً عن الخلق، وربما عن جزءٍ من وعيه، أما الخبير فلم يحجبه عنها حجاب.

فإذا انقشع نفع الحياة، وسكنت حوافر الأيام، وتوقفت رحلة الجمع والتكاثر، وبُعثرت القبور، وحُصّلت الصدور، لن يبقى للإنسان إلا ما كان عليه في علم الله. لا ما قاله عن نفسه، ولا ما قاله الناس عنه، ولا الصورة التي دافع عنها؛ بل الحقيقة كاملةً بين يدي ربّ خبير، عادلٍ لا يظلم، رحيمٍ لا تضيق مغفرته بتائب.

فطوبى لمن عاش تحت نظر الخبير فاستحيا، وعمل لعلم الخبير فاستغنى عن التصفيق، وبثَّ إلى الخبير حزنه فاطمأن، وتاب إلى الخبير فلم يئأس. وطوبى لمن أصلح ما بينه وبين الله قبل أن يظهر ما في صدره للقاء الله؛ لأن النهاية لا تسأل الإنسان: كم ارتفع غبارك في الأرض؟ وإنما: ماذا كان في قلبك حين كنتَ تمضي فوقها؟

الخلاصة

من ضَبِحَ العاديات إلى انكشاف المصير

تنتهي سورة العاديات، لكن مشهدها لا ينتهي في النفس؛ تظل الخيل تعدو في الخيال، وتظل أنفاسها المتلاحقة تُسمع من وراء الكلمات، ويظل الشرر ينقدح من الحجارة، والغبار يرتفع، والجموع تُقتحم، ثم تسكن الصورة كلها فجأةً ليبقى الإنسان وحده أمام السؤال: إلى أين كان يعدو هو؟

لقد بدأت السورة بخُلُوقاتٍ تستنفد ما فيها من قُوَّةٍ في أداء ما سُخرت له، وانتهت بإنسانٍ سيُسُخر من قبره، ويُستخرج ما في

صدره، ويقف أمام ربِّ خير. وبين البداية والنهاية ترسم السورة منحى الحياة كلها: حركة فوق الأرض، وتعلق بما فيها، وغفلة عن واهبها، ثم عودة إلى باطنها، وخروج منها إلى الله.

إنها سورة قصيرة في عدد آياتها، لكنها واسعة في فضاءها؛ تبدأ من ميدانٍ تمتلئ جوانبه بالحركة، ثم تعبر إلى ميدان القلب الذي تمتلئ جوانبه بالجود والحب، ثم تنتهي في ميدان القيامة حيث تُقلب القبور وتُصفى السرائر. إنها لا تترك الإنسان في خارج الصورة، بل تجذبه من موضع المتفرج إلى موضع المقصود؛ فما إن يندهش من قوة العاديات حتى يفاجئه القرآن بقوله:

﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾.

وكان كل ذلك العدو كان طريقاً للوصول إلى هذه الكلمة؛ وكل ذلك الضَّيْح كان تمهيداً لأن يسمع الإنسان صوت قلبه؛ وكل ذلك الشرر كان ضوءاً خاطفاً يكشف له مقدار الظلمة التي قد تسكن داخله. لم تكن الخيل هي الغاية الأخيرة من المشهد، بل كانت مرآة يرى الإنسان على صفحتها تقصيره: مخلوق يؤدي

ما سُخِّرَ له حتى آخر قوته، وإنسانٌ أُعطي العقل والوحي والإرادة
ثم قد يستهلك قواه في غير الغاية التي خلق لها.

والسورة لا تعيب الحركة، بل تكشف انحراف الوجهة؛
فالإنسان كائنٌ عادٍ بطبيعته، يمضي كل يومٍ إلى شيءٍ يطلبه،
ويستنفد أنفاسه في سبيل غايةٍ يحبها. غير أن السؤال القرآني لا
ينشغل بمقدار سرعته وحدها، بل بالمكان الذي تنتهي إليه
خطواته. قد يركض الإنسان طويلاً ويصل بعيداً، لكنه يكتشف
عند النهاية أنه كان يبتعد عن نفسه وربه؛ وقد يمضي آخر في
هدوء، لكن كل خطوةٍ منه تقع في جهة الخلود.

ليست المشكلة أن يكون للإنسان طموح، ولا أن يحب
النجاح، ولا أن يسعى إلى الرزق؛ فالسكون ليس فضيلةً في ذاته،
والفقر ليس طهارةً تلقائيةً، والعجز لا يصبح زهداً بمجرد أن
صاحبه لا يملك. إنما المشكلة أن تتحول وسائل الحياة إلى غايتها،
وأن يصبح ما في اليد أعظم مما في القلب، وأن يستنفد الإنسان
نفسه في بناء عالمه الخارجي ويترك عالمه الداخلي خراباً.

لقد أرت الخليل النار من الحجارة، فكأن السورة تعلمنا أن الطريق لا يكشف مسافته فقط، بل يكشف معدن السائر فيه. الشدة تقدح المكنون؛ يظهر عندها الصبر أو السخط، والوفاء أو التخلي، والإيمان أو التعلق بالأسباب. نحن لا نعرف أنفسنا معرفةً كاملةً في لحظات الراحة، لأن الرخاء قد يترك كثيراً من الصفات نائمة؛ فإذا جاءت الصخرة، ووقع الاحتكاك، خرج الشر الذي كان كامناً.

وليس كل شرٍ نوراً؛ فقد تقدح المحنة في القلب بصيرةً، وقد تقدح فيه حقداً. وقد يستخرج الألم من الإنسان رحمةً بالمتألمين، وقد يجعله قاسياً يريد أن يذيق الآخرين ما ذاق. لا تحدد الشدة وحدها ما نصير إليه؛ إنما يحدده القلب الذي نستقبلها به، والمعنى الذي نصنعه تحت نور الوحي. الصخرة واحدة، لكن من النفوس ما يقدح منها هداية، ومنها ما يتكسر عليها.

ثم أغارت العاديات صبحاً، فامتزج نور الفجر بحرارة الفعل، وكأن السورة تقول إن المعرفة التي لا تتحول إلى حركةٍ تظل

صباحاً لم تستيقظ فيه الروح. ما أكثر ما يطلع النور في عقولنا ولا نخرج به من ظلمات عاداتنا! نعرف الصواب ونؤجله، ونعرف موطن ضعفنا ثم نهاندنه، ونرى قصر العمر لكننا نعيش كأن الطريق لا نهاية له. أزمة الإنسان ليست دائماً أن الحقيقة غائبة، بل أن الحضور العملي للحقيقة ضعيف.

وأثارت العاديات النقع، فارتفع الغبار وحُجبت بعض الرؤية. وهذه هي الحياة في كثيرٍ من لحظاتها: حركةٌ كثيفة، وأحداثٌ متداخلة، وأصواتٌ متزاحمة، وغاياتٌ تتشابه على العين من وراء الغبار. يحتاج الإنسان إلى بصيرةٍ تبقى عاملةً حين تضطرب الأبصار، وإلى معيارٍ لا يتغير لأن الناس تغيروا، وإلى قلبٍ لا يفقد وجهته لأن الطريق لم ينكشف له كله.

وسيهبط غبار الحياة كله يوماً؛ الضجيج الذي صنعناه حول أسمائنا، والمعارك التي ظنناها أكبر من العالم، والصور التي بذلنا أعمارنا لتثبيتها في عيون الناس. سينقشع النقع، وسيظهر ما كان تحتها: ربما عملٌ صادقٌ لم يعرفه أحد، وربما فراغٌ كبيرٌ أخفته

الشهرة، وربما قلبُ عامرٍ توارى خلف حياةٍ بسيطة، وربما سريرةٌ خاويةٌ كانت محاطةً بالتصفيق.

لقد توسطت الخليل الجمع، ثم توسط القرآن أعذار الإنسان، ووصل إلى مركز الداء: الكنود. والكنود ليس إنكار النعمة باللسان وحده، بل اضطرابٌ في الرؤية يجعل الإنسان شديد الوعي بما فاتته، ضعيف الوعي بما أُعطي؛ يحفظ تواريج أوجاعه وينسى أعوام الرحمة، ويجعل النعمة حقاً معتاداً، فإذا نقص منها شيءٌ ظن أن الوجود كله قد خانه.

إن الكنود فقرٌ في البصيرة قبل أن يكون نقصاً في الأشياء؛ فقد يعيش الإنسان داخل نعمٍ واسعةٍ ولا يرى منها شيئاً، لأن قلبه مشدودٌ إلى نعمةٍ واحدةٍ غابت عنه. ينظر إلى الباب المغلق حتى ينسى أن البيت كله مفتوح، ويحقد في خسارةٍ واحدة حتى تحو من وعيه تاريخاً كاملاً من العطايا. لا ينكر القرآن ألمه، لكنه يردّه إلى العدل: لا تجعل الجرح شاهداً الوحيد على الله، فكم من رحمةٍ تملك الآن وأنت لا تشعر بها!

والشكر الذي تقابله السورة بالكنود ليس ترديداً لفظياً فحسب، بل طريقة وجود؛ أن يرى الإنسان نفسه محمولاً بالفضل، وأن يشعر أن كل ما لديه أمانة، وأن تتحول النعمة في يده إلى طاعة ورحمة. فشكر العلم أن ينفع، وشكر القوة أن تعدل، وشكر المال أن تبذل، وشكر الكلمة أن تصدق، وشكر السر أن تستحي، وشكر الهداية أن تتواضع لمن لم يبلغ ما بلغت.

ثم جاءت الشهادة الداخلية: ﴿وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ﴾. إن الإنسان لا يعيش بعيداً تماماً عن حقيقة نفسه؛ أفعاله تشهد، واختياراته تشهد، وطريقة انفعاله عند العطاء والمنع تشهد. قد يكتب لسانه قصةً جميلةً عنه، لكن قلبه يعرف الأجزاء التي حذفها، والمقاصد التي غير أسماءها، والأعذار التي صنعها كيلا يواجه مسؤوليته.

وهذه الشهادة ليست باباً لليأس، بل بداية النجاة؛ فمن استطاع أن يرى داءه استطاع أن يطلب علاجه، ومن اعترف بكنوده استطاع أن يبدأ الشكر. الخطأ الذي نعترف به أضعف من الخطأ

الذي نحميه بالأعذار، والذنب الذي يدفعنا إلى باب الله خيرٌ من طاعةٍ تدفعنا إلى الكبر. ليست العبرة أن ندّعي الطهارة، بل أن نبقى في حالة عودة، نرى انحرافنا قبل أن يتحول إلى طريقٍ دائم. ثم كشفت السورة جاذبية المال: ﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾. فالمال هو الخير الذي تراه النفس قريباً، ملهوساً، قادراً على منحها قدراً من القوة والأمان؛ لذلك يشتد حبها له. لكن المال، مهما اتسعت قدرته، لا يستطيع أن يجيب عن الأسئلة الكبرى: لا يمنع الموت، ولا يطهر السريرة، ولا يشتري القبول، ولا يملأ الفراغ الذي سببه البعد عن الله.

المال خادمٌ نافعٌ وسيدٌ قاسٍ؛ إذا بقي في اليد أقام مصالح الحياة، وإذا انتقل إلى عرش القلب أعاد تشكيل الإنسان على صورته. يجعله يقيس الناس بما يملكون، وقيس نفسه بما يجمع، ويقرأ كرامته من خلال الأرقام، ويجعل كل شيء قابلاً للبيع. وحين يبلغ الحب هذه الشدة لا يعود الإنسان مالِكاً للمال، بل يصبح حارساً قلقاً لخزائنه، يخاف عليها أكثر مما ينتفع بها.

ولم تأمر السورة بترك المال، بل وضعت القبر إلى جواره. بعد قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ لَحُبٌّ لَّخَيْرٍ لَّشَدِيدٍ﴾ جاء السؤال:

﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ﴾.

إنها المواجهة التي تعيد الأشياء إلى أحجامها: المال الذي جمعه الإنسان سيبقى فوق الأرض، أما الإنسان نفسه فسيخرج من تحت الأرض. كان يحرس ما في الخزائن، ثم صار جسده وديعةً في قبر، وكان يخاف تفرق أمواله، ثم تفرقت أجزاؤه في التراب، وكان يؤجل العمل للآخرة كي يزيد ما سيتركه في الدنيا.

غير أن القبور لن تبقى مغلقة؛ فالموت في القرآن ليس السطر الأخير، وإنما بابٌ إلى الفصل الذي تظهر فيه حقيقة الفصول السابقة. ستُبْعَثُ القبور؛ يخرج الملوك والفقراء، والظالمون والمظلومون، والمشهورون والمجهولون. ولا تخرج معهم الألقاب التي رتبهم في الدنيا، بل يخرجون أفراداً إلى ميزانٍ لا يعترف إلا بحقيقة الإيمان والعمل.

إن الإيمان بالبعث ينقذ الأخلاق من العبث؛ فالظلم الذي لم يُحاسب صاحبه في الدنيا له يوم، والدمعة التي لم يرها أحد لها وزن، والتضحية التي ضاعت من ذاكرة البشر لا تضيع عند الله. ولو كانت القبور نهاية القصة لبقيت أسئلة العدل معلقة، لكن الأرض سترد ودائعها، وسيقف الجميع أمام رب لا تضيع عنده الحقوق.

ثم تمضي السورة إلى ما هو أبعد من خروج الأجساد:

﴿وَحَصَلَ مَا فِي الصُّدُورِ﴾.

لا يكفي أن يخرج الإنسان من قبره، بل لا بد أن تخرج الحقيقة من الإنسان. تُجمع النيات، وتُميز الدوافع، وتُستخرج المحابّ والخاوف والأحقاد والآمال، ويسقط الفارق المصطنع بين الصورة والسريرة. في الدنيا يستطيع المرء أن يختار ما يظهره، أما يوم التحصيل فلا يملك تحرير الرواية الأخيرة عن نفسه.

إن أعظم ما يحمله الإنسان في رحلته ليس ماله ولا اسمه ولا صورته في أعين الناس، بل صدره؛ ذلك العالم الخفي الذي

نتكون فيه قيمة كل شيء. قد يصغر العمل في أعين الناس وتعظم نيته عند الله، وقد تضخم الصورة وتكون الروح خاوية. وما أعدل اليوم الذي تُرد فيه الأعمال إلى مقاصدها، ويظهر فيه المخلص الذي لم يعرفه أحد، ويسقط فيه الزيف الذي عرفه الجميع.

لكن النية لا تبرر الفعل الفاسد، كما أن ظاهر الصواب لا يغني عن صلاح القصد. يريد القرآن من الإنسان وحدةً أخلاقيةً يلتقي فيها القلب والعمل: مقصدٌ لله، ووسيلةٌ يرضاها الله، وأثرٌ لا يقوم على ظلم الخلق. ليست التزكية أن يضع الإنسان اسماً جميلاً على هواه، بل أن يعرض هواه نفسه على ميزان الحق. ويأتي الختام:

﴿إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ خَبِيرٌ﴾.

إنها الكلمة التي تستقر عندها السورة كلها. الله خبيرٌ بالعدو والضَّيِّح، وبالشرر والنقع، وبالكنود والحب، وبالقبر والصدر.

خَيْرٌ بما ظهر وما خفي، وبما فعله الإنسان وما أراد فعله، وبما استطاع وما عجز عنه، وبما زين للناس وما اعترف به في خلوته. ليست خبرة الله مرادفةً للخوف وحده؛ إنها عدلٌ للمظلوم الذي لم يفهم، ورحمةٌ للمجاهد الذي لم ير، وطمأنينةٌ للمخلص الذي لم يذكر. إن كان في صدرك خيرٌ لم يعرفه الناس، فالله خير؛ وإن حملت أماً لم تستطع شرحه، فالله خير؛ وإن قاومت ذنباً في معركةٍ لم تشهدها عين، فالله خير. لا يحتاج الخير إلى ضجيجٍ كي يصل إلى علمه، ولا يحتاج الحزن إلى بلاغةٍ كي يفهمه.

وهي في الوقت نفسه رهبةٌ لمن اتخذ الخفاء موطناً للخيانة، ولمن بنى مقامه على صورةٍ كاذبة، ولمن ظن أن غياب العيون يعني غياب الشاهد. ما تغلقه الأبواب عن الناس لا يغلق عن الله، وما يدفنه الإنسان في صدره لا يخرج من دائرة العلم. السر ليس غائباً، وإنما هو مؤجل الظهور.

إن سورة العاديات تعيد الإنسان إلى مركز مسؤوليته: قلبه. لا تسأله فقط ماذا فعل، بل لمن فعل؛ ولا كم جمع، بل ماذا فعل

بما جمع؛ ولا كيف ظهر، بل ماذا أخفى؛ ولا كم ارتفع غباره،
بل إلى أي جهة كان يعدو. إنها تنزع عنه إغراء المظاهر، وتضعه
أمام جوهر الرحلة: علاقة العبد بربه.

الحياة عدوٌ لا يتوقف؛ كل يوم ضَبْحَةٌ، وكل تجربةٍ قدح،
وكل مرحلةٍ صباح، وكل حركةٍ نثير شيئاً من النقع، وكل قرارٍ
يقرب الإنسان من مركز غايته أو يبعده عنها. ثم تأتي اللحظة التي
تنقطع فيها الأنفاس، ويسكن الجسد، ويغادر الراكض ميدان
الدنيا. لكنه لا يخرج من القصة؛ يوضع في القبر منتظراً يوم
البعثرة والتحصيل.

ولعل أعمق سؤالٍ تتركه السورة ليس: هل نعدو؟ فنحن نعدو
لا محالة، والعمر يحملنا وإن وقفنا؛ وإنما: ماذا يملك زمامنا؟ أهو
أمر الله أم ضغط الشهوة؟ أهى الغاية الكبرى أم المكاسب
القريبة؟ أهو الشكر أم الكنود؟ أهو حب الخير الذي يخدم
الرسالة، أم الحب الشديد الذي يستعبد القلب؟

ما أكثر الذين وصلوا إلى أشياء كثيرة ولم يصلوا إلى أنفسهم،
وربحوا العالم وخسروا القدرة على الطمأنينة، وملاؤوا خزائهم
وتركوا صدورهم خاوية! وما أجمل إنساناً عرف وجهته، فلم
تخدعه السرعة عن الطريق، ولا الغبار عن الحقيقة، ولا المال عن
المنعم، ولا القبر عن البعث، ولا الصورة عن السريرة.

إن المطلوب ليس أن يخرج الإنسان من الدنيا بلا حظٍّ منها،
بل أن يخرج منها دون أن تكون قد استعبدته؛ أن يحمل المال في
يده ولا يحمله في موضع الله من قلبه، وأن يعمل ويبني ويكتب
ويزرع، لكنه يعرف أن قيمة كل ذلك ستظهر حين يُحصّل ما
في صدره. فما كان لله بقي، وما كان للصورة انطفأ بانطفاء
العيون التي كانت تراه.

والشكر هو الجواب العملي عن كنود النفس: أن تستيقظ
للنعمة قبل زوالها، وأن ترى فضل الله في المعتاد الذي لم تعد
تندهش منه، وأن تعرف أن وجودك نفسه عطية. ليس الشكر

أن نتوقف عن طلب المزيد، بل أن نطلبه دون جحود الموجود،
وأن تسأل الله وأنت ممتن، لا وأنت تقاضيه وفق رغبتك.

والإخلاص هو الجواب عن عالم الصدور: أن يقلّ الفرق بين
ظاهرك وباطنك، وأن تعمل لأن الله يعلم لا لأن الناس يرون،
وأن تفرح بوقوع الخير ولو لم يكتب اسمك عليه. ليس الإخلاص
غياب حب التقدير البشري تماماً، فالإنسان يفرح بالثناء، لكنه
ألا يجعل الثناء هو الذي يمنح العمل حياته.

والبعث هو الجواب عن غفلة الطريق: أن تتذكر، وأنت تمشي
فوق الأرض، أنك ستخرج يوماً من باطنها؛ وأن تدرك أن كل
لحظة تتجاوز حدودها إلى الأبد. ما من كلمة تنتهي عند خروجها
من الفم، ولا حقّ يضيع لأنه لم يُسترد في الدنيا، ولا خير يفنى
لأن الناس نسوه. كل شيء يمضي إلى الله.

والخبرة الإلهية هي الجواب الأخير عن قلق الإنسان كله: الله
يعلم. يعلم ضياعك، ويعلم طريق عودتك؛ يعلم ذنبك، ويعلم صدق
توبتك؛ يعلم ظلم من ظلمك، ويعلم مقدار ما دخل قلبك من رغبة

في الانتقام؛ يعلم ضعفك، ويعلم ما بذلته كي تتجاوزته. فلا تستتر عنه بعذر، ولا تياس منه بذنب، ولا تطلب من الناس علماً كاملاً بك لا يملكونه.

وحين يخرج القارئ من سورة العاديات، لا ينبغي أن يخرج منها متفرجاً على جمال الصورة وحده، بل حاملاً سؤالها في صدره. كلما اشتد عدوه إلى الدنيا سمع الضبح، وكلما اصطدم بصخور الطريق تذكر الشرر، وكلما علا الغبار تذكر أن الحقيقة ستظهر، وكلما أمسك المال بقوة سأل: أفي يدي هو أم في قلبي؟ وكلما أقبل على عملٍ نظرت في نيته، وكلما مرّ بقبرٍ سمع النداء:

﴿أَفَلَا يَعْلَمُ؟﴾

فيا أيها الإنسان، إنك تعدو منذ أن فتحت عينيك على هذا العالم، وإن أنفاسك تتناقص مع كل خطوة، وإن صباح النهاية قادمٌ وإن بدا بعيداً. فلا تجعل عدوك الطويل ينتهي عند حفنةٍ من ترابٍ دون زاد، ولا تجعل خريك كله شيئاً تتركه وراءك، ولا تحمل إلى قبرك صدرًا مزدحمًا بالكنود والحقد والرياء.

عُدْ إلى ربك قبل أن تعود إليه رَغْمًا عنك، واشكر قبل أن
تعرف قيمة النعمة بفقدائها، وابذل قبل أن يصبح المال لغيرك،
ونظّف صدرك قبل أن يُحصّل، واستحضر خبرة الله بك قبل أن
تتحوّل الخبرة إلى حكمٍ وجزاء. واجعل من كل نفسٍ فيك خطوةً
إلى الله، حتى إذا سكت ضَبْحُ العمر، وانقشع نَقْعُ الدنيا، وبُعْثَ
قبرك، خرجتَ إلى ربك بقلبٍ لم يكن كاملاً، لكنه كان صادقاً
في العودة، عارفاً بالنعمة، مجاهداً لكنوده، راجياً رحمة الخبير.

تم بحمد الله وفضله